العقل والضمير

نظرات في الإنسان والتطور

د. سعدون حمادي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

العقل والضمير

نظرات في الإنسان والتطور

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩٦١

الطبعة الأولى
تموز (يوليو) ١٩٩٧

- ١ -

نقطة البداية في المعرفة هي النظر في داخل الإنسان ثم النظر فيما حوله. والمقصود بالنظر التفكير والفحص وبالتالي المعرفة، والمعرفة هي التوصّل إلى الحقيقة، أعني جوهر الأشياء. وقد تباينت طُرُق المعرفة وتعدَّدت نُظُمها مما نجده مشروحاً في الكتابات المعنيّة، أي ما يُسمّى بنظريات المعرفة. وفي هذا الصدد لا بد من القول بأن قدرة الإنسان على التفكير هي التي تُمكّنه من القيام بهذه المهمّة التي ينفرد بها عن سائر الكائنات الحيّة الأخرى. لذلك، وبهذا المعنى، فالعقل هو الأداة التي مكَّنت الإنسان من التفكير، أي من النظر في الأمور ومحاولة فهمها.

وغنيّ عن البيان أن النظر في داخل النفس أو النظر فيما يحيطها ليس كما قد يتبادر إلى الذهن من حيث المدى والحدود بل الدائرة أوسع. فموضوع النفس البشرية وما يدور في داخلها والقوى الموجودة فيها وكيف تعمل ليس بالأمر البسيط، بل هو أمر معقّد وينطوي على أمور واسعة لم تزلْ الفلسفة منذ أقدم العصور تُحاول تفسير جوهرها، ويحاول علم النفس، على حداثته، أن يتوصل إلى شيء من الفهم لذلك الجوهر. فالموضوع واسع والمهمّة ليست سهلة، ومع ذلك تبقى الجهود في هذا السبيل مطلوبةً.

والإنسان الراغب في هذا النوع من البحث ربما لا يجد في البداية ما يوحي له بأهمية النظر في الأمور الكلّية وفهم الجوهر، إلا أنه بتوسيع الاطلاع وتراكم المعرفة، يقترب شيئاً فشيئاً من الشعور بأهمية النظر في الأمور من هذه الزاوية، زاوية الفهم الكلّي من أجل التوصّل إلى الحقيقة. وهناك دوافع أخرى للبحث والتقصّي. فقد يكون الدافع فهمَ الجزء لسبب من الأسباب، وقد يكون الدافع أيضاً عملياً يتعلّق بالحياة اليوميّة. إن مثل هذه الدوافع قد توجّد عند الكثيرين من طلّاب العلم إلاّ أن ذلك يبقى دون ما نحن بصدده وأقلّ مما نقصده وهو الفهم الكلّي.

إنني بالطبع أعرف أن وجهات نظر كثيرة أبداها مفكّرون معروفون، ونظريات عديدة عن موضوع الفهم الكلّي لم يكن بعضها خالياً من الغرض العقائدي المسبق. وقد سبق لي أن كتبت عن ذلك، كما وجدت هناك من ٱلتفت إليه وعالجه من الكتّاب. ولعل أفضل ما قرأت في هذا المجال هو مقال للفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل بعنوان «تلخيص لنفايات فكرية» أوضح فيه أن دوافع جميع الأمثلة التي أوردها من النظريات لم تكن متطابقة مع الادّعاء والظاهر، بل كانت وراءها أهدافٌ خاصة هي دون ذلك. إنني بالطبع لا أقصد هذا النوع من الجهود الفكرية.

إننا كأفراد لا بد من أن ننظر في داخل نفوسنا بشكل أو بآخر. فالإنسان لا يُمكن إلاّ أن يخلو إلى نفسه ويُفكّر فيها وينظر في داخلها من وقت لآخر وبطريقة معيّنة. إن عملية النظر في داخل النفس موجودة ومستمرة، إلا أنها تتباين من حيث الدافع والعُمق والقدرة على الفهم وتفسير ما يدور فيها.

وفي هذا الصدد، لا يفوتني أن أنوّه بأن ذلك قد أصبح الآن موضوعاً نفسياً مهمّاً يدور على عملية التركيز التي كما يبدو بإمكانها أن تذهب بعملية النظر في النفس عميقاً في أغوارها وتؤدي بالتالي إلى اكتشاف الكثير مما هو غير مكتشف عن ذلك العالم الذي لا يزال مجهولاً تقريباً. إن التركيز نشاطٌ له قواعده التي إذا ما أتبعت فإنها تؤدي بمرور الوقت إلى زيادة المعرفة عن الذات البشرية. ويتحدّث بعضهم الآن وبطريقة علمية عن أن تلك المعرفة مقرونة باكتشاف قوة هائلة كامنة في النفس هي الآن في حالة سُبات عند عامّة الناس، وأن اكتشاف تلك القوة وتطوّرها واستخدامها يعني الشيء الكثير عملياً من حيث قوة الإرادة والقدرة على السيطرة على المحيط بشرياً ومادياً وتغييره. وأود هنا التنويه بأنني أورد هذا الموضوع عَرَضاً، إذ المقصود هو عملية التفكير وليس ما ينتج عنها من اكتشاف قوى النفس.

الكلمة الأخرى التي تتبع ذلك تتعلّق بالمحيط. فالنظر في داخل النفس جانب والنظر في المحيط خارج النفس جانب آخر. ويعني ذلك النظر في المحيط سواء أكان بشرياً، أي المجتمع، أو كان مادياً، أي الطبيعة. إن التفكير فيما يحيط الإنسان هو أيضاً أمر طبيعي. فالإنسان لا يستطيع أن يحصر تفكيره بما يدور في داخله، بل لا بد له أيضاً من أن ينظر فيما يحيطه في المجتمع والطبيعة. فهو في علاقة مع الآخرين، كما انه في علاقة مع الطبيعة، وليس ثمة مناص من النظر في ذلك والتفكير فيه. وهنا أيضاً يكون المقصود الذي نحن بصدده هو ذلك النظر المتّصف بالصفة الكلّية، أي انه ليس نظراً تفصيلياً يتعلّق بجزء، وليس عملياً يتعلّق بحادثٍ يومي.

الإنسان مهما كان لا بد أن ينظر فيما حوله بغض النظر عن درجة العمق ومدى القدرة على الفهم والاستنتاج بصدد جوهر الأشياء. الكلّ ينظر ويفكّر فيما يحيطه في المجتمع والطبيعة، وإن كانت نتائج ذلك النظر والتفكير تختلف من فرد لآخر.

إذا كان ذلك صحيحاً فهو نقطة بداية الفكر البشري، وبهذا المعنى أرى أن الإنسان هو محور الكون. وكما سيتضح فيما بعد من خلال المناقشة، فإن هذا القول لا يعني أن الإنسان هو جوهر الكون والقوة الكلّية فيه. كلا، فذلك شيء آخر. المقصود هو أن الإنسان بسبب قدرته على التفكير والنظر في الأمور ومَلَكَة تكوين المعرفة لديه، هو نقطة البداية فيما هو مفيد ومهمّ في الكون على فرضية أن المفيد والمهمّ هو الارتقاء نحو الأفضل بغضّ النظر عن تعريف المقصود بالأفضل. إذن فالبحث لا يكون مجدياً ولا يكون مفيداً ولا يؤدي إلى نتيجة إلا إذا ابتدأ من النقطة التي توجد فيها ملكة التفكير والقدرة على النظر في الأمور ألاَ وهي الإنسان. وإلاّ كيف يكون الأمر إذا لم نبدأ من الإنسان؟

من أين نبدأ إذا لم نبدأ من الإنسان والأمر يتعلّق بالوصول إلى الحقيقة وتكوين المعرفة عنها، أي فهم جوهر الأشياء؟ هل نبدأ من المجتمع، والمجتمع بدون الأفراد ليس له وجود، وبالتالي، ليس فيه ملكة التفكير. والطبيعة لا تصلح أيضاً، فهي لا تفكّر. لذلك فأخذها كنقطة بداية أمر عبثي كما هو واضح. إذن وبهذا المعنى المحدّد، ولهذا الغرض الذي ذكرناه، الإنسان هو نقطة البداية.

- ٢ -

كيف ينظر الإنسان في داخل نفسه؟ إنه يقوم بذلك بذاته أو بدافع، والدافع هو الحوادث التي يتعرّض لها. ويقوم بالتفكير بذاته أيضاً بسبب تلك الوحدة الصعبة الفهم بين التفكير وداخل النفس. إن مَلَكَةَ التفكير مَلَكَةٌ فعّالة متحركة وليس من صفاتها السبات، لذلك فهي لا بد أن تنظر فيما يختلج في داخل النفس من ميول ورغبات ومواقف ودوافع. إنني هنا لا أقصد بالطبع وجود مكانين منفصلين ماديّاً واحد للتفكير وواحد لداخل النفس، بل المقصود هو التفكير في شؤون الذات وذلك الحوار الدائم والصلة المستديمة وعملية التفاعل تلاؤماً أو تصادماً بين التفكير والنفس.

إن اللغة قد تُعبّر عن ذلك بعبارات واضحة أحياناً وتعكس ذلك النوع من العلاقة، فيُقال مثلاً إن نفسي تقول كذا وعقلي يقول كذا.. وهكذا. إنه تعبير تبسيطي عن تلك العلاقة وذلك التفاعل. ولعل أهمّ وسيلة تحليلية للتعرّف على تلك العلاقة ومعرفة كيف تتمّ هي تحليل دوافع النفس وميولها وتصنيف تلك الدوافع. إن عملية التصنيف هذه تعني التعامل مع عددٍ لا يُحصى من الدوافع والأحاسيس إذ إنها متباينة لا يتكرّر أحدها. فكما أن وجوه الناس لا تتكرّر وبصمات أصابعهم لا تتكرر، فكذلك الأحاسيس فهي قد تتقارب إلا أنها لا تتكرر. وبالرغم من ذلك وتوخياً للسهولة والعملية يُمكن تصنيف المشاعر مجموعاتٍ وجمعها في حِزَمٍ لكل منها عنوان. والعنوان قاسمٌ مشترك بينها وصفةٌ عامة تصحّ على مجموع ما في الحزمة الواحدة. فيُقال مثلاً: الشعور بالفرح والشعور بالحزن. إن حالات الفرح لا تتطابق، إلا أنها يُمكن أن

تُجمَع في حزمة واحدة تُطلق عليها صفة الفرح. . وهكذا، وكذلك الشعور بالعدل أو الشعور بالظلم.

أما النظر في المحيط الاجتماعي والمحيط الطبيعي فيقوم به العقل البشري أيضاً. فالإنسان في علاقة يومية مع شؤون المجتمع وظواهر الطبيعة. وهو في هذه العلاقة، عليه أن يأخذ موقفاً بالقبول أو الرفض أو التدخّل، وهو في كل ذلك لا بد من أن ينظر ويفحص ويعطي حكماً. كذلك ظواهر الطبيعة، فهي على تماسٍ يومي مع الإنسان، وتضع عليه بالتالي مسؤوليات العلاقة.

وهنا نصل إلى نقطة مهمّة في البحث، وهي أن كل ما هو موجود يسير طبقاً لنظام محكم. فهناك التنسيق والترابط وعلاقة السبب والنتيجة والجدوى والأهميّة والفائدة وتحقيق الغرض. وبعبارة أخرى، هناك علاقة منطقية بين الأشياء، لأنها إذا ما نظرنا إليها ككل موجود نجدها تُكوّن وحدةً منسجمة. فالموجود في محيط الإنسان ليس فوضى بل نظام. إن البرهان على وجود النظام أمرٌ ممكن سواء بنظرة العالِم المتفحّص الدارس أم بالنظرة البسيطة المباشرة أي نظرة الإنسان العادي.

هناك نظامٌ بكل ما في كلمة النظام من معنى وليس فوضى. إن الفرق بين النظام والفوضى يكمن أساساً في وجود قواعد الحركة وهو ما ندعوه بالقوانين. وأهمّ صفة لتلك القواعد هي الثبات والتكرار، أما الفوضى فهي حالة انعدام القواعد للحركة، فلا شيء ثابتاً ولا شيء يتكرر والغاية غير متوافرة.

هناك نظامٌ يحكم محيط الإنسان. وفي المجتمع هناك أيضاً نظام

أنشأه البشر بغض النظر عن الدوافع وعن درجة الكمال. وفي الطبيعة هناك نظامٌ بغض النظر عن درجة فهمنا له ومدى اكتشافنا لكامل مكوّناته. والنظام يعني السببية في العلاقة أو المنطقية في العلاقة. والمقصود بالمنطقية هو أن العلاقة لها هدف وغاية منسقة أي متلائمة. وهي أيضاً ذات هدف ينتج عن ذلك التنسيق؛ إنه نظام يعمل ويتكرر فيه التلاؤم وفيه الغاية المتجسّدة في النتيجة العملية. وليس هناك أدلّ وأكبر من النتيجة العملية لذلك النظام من وجود الحياة نفسها، الحياة بكل ما فيها على هذا الكوكب في حدود ما نعرف حتى الآن.

وموضوع النظام في داخل الإنسان يحتاج إلى مزيد من المناقشة والإيضاح. المُلاحظ عن النظام الموجود في داخل النفس هو أن الإنسان عندما يُواجَه بموقف سواء أكان من داخل النفس أم من خارجها، فإنه يقوم بعملية النظر في الأمر ويحدث في داخله صراعٌ وتَقابُلٌ، وفي النهاية يحدث الموقف فيتكوّن الرأي أو يصدر الفعل إزاء ذلك. إن عملية التقابل والتفاعل أو عملية الصراع والجذب والدفع تؤدي إلى اتخاذ موقف معيّن من الحادث أو الخاطر. وكما سنرى فيما بعد، فإن النتيجة لا تكون متشابهة بل مختلفة من حال إلى حال، كما أن ميكانيكية خروج الموقف تختلف من حال إلى حال. المهمّ هو أن عملية موازنة أو تقويم تجري في داخل النفس إزاء كل أمر يتعرّض له الإنسان، وينتج عن ذلك موقفٌ قد يكون ظاهراً وقد يكون مستتراً، وقد يكون هذا أو ذاك، إلا انه موقفٌ على كل حال. إن معالم النظام تتمثل في عملية الجذب والدفع، وفي عملية الصراع والتقابل بين قوتين لكل منهما أسبابها ومبرّراتها التي تقدّمها للنفس دليلاً على صحة ما تريد.

ونتحوّل الآن إلى خطوة متقدمة في مجال البحث فنقول إن النظام الكلّي الموجود في الوجود، أي الإنسان ومحيط الإنسان، له غاية وهدف، وهو بالتالي ذو بصيرة. والغاية هذه تتمثّل، أول ما تتمثّل، بالاستمرار والمحافظة على الوجود. فالوجود هو الغاية الأساسية في الكون. فغاية الإنسان هي أن يُوجد، والأشياء المادية التي تحيط به غايتها أن تُوجد. فذلك ما يُفصح عنه النظام الكلّي المتمثّل في كل شيء. والوجود هذا بحدّ ذاته غاية ذات صفة أخلاقية. إن الوجود غاية مثالية، بمعنى أنها في اتجاه الخير، وعلى هذا الأساس يكون الكون موجوداً لسبب مثالي أخلاقي. إن الغاية المثالية لنظام الكون تعني أن في هذا الكون قوةً كلّية مسيطرة، وهي وراء القوانين والمحرّك للعلاقات والقوة الدافعة لعمل النظام وحركة قوانينه. والقوة هذه ذات غاية أخلاقية تبدأ من السعي إلى الوجود والبقاء والاستمرار. فالذي ينظر في قوانين الطبيعة وحركات مكوّناتها يجد أنها تسير وفق نظام معيّن، وأن هذا النظام يرمي في النهاية إلى هدف، والهدف هو البقاء والمحافظة على الوجود. ولعلّ أهمّ ما يتضح فيه ذلك هو سعي الحيوان وسعي النبات إلى البقاء بمختلف الوسائل التي تؤدي إلى الحصول على وسائل البقاء من طعام وغذاء وهواء. كل شيء في الطبيعة من الكائنات الحيّة يعمل من أجل الحصول على ما يُديم به حياته ويضمن استمراره وبقاءه.

وفي الطبيعة نظامٌ لحصول تلك الكائنات على وسائل حياتها، الأمر الذي خلق وضعاً رائعاً من التوازن والترابط والتناسق يؤدي في النهاية إلى بقاء تلك الكائنات واستمرارها. والأمثلة على ذلك كثيرة.

وليس ذلك فحسب، بل إن النظام الموجود في حياة الكائنات

الحيّة، الحيوان والنبات، يعمل ليس من أجل البقاء فحسب بل من أجل التطوّر أيضاً، أي لزيادة الموجود كمّاً ونوعاً عن طريق التلقيح من أجل خروج أصناف جديدة فيها مزايا الآباء والأجداد إلى جانب مزايا جديدة ولّدتها عملية التلاحم والتزاوج نفسها. وهكذا تتوالى أجيال الحيوان والنبات، بعضها يتعرّض للفناء، وبعضها يُولد من جديد؛ بعضها يُغيّر صفاته بسرعة، وبعضها ببطء شديد. . وهكذا.

إن باطن الأرض نفسه هو في عملية تفاعلية حركية دائمة حيث تتكوّن المعادن، وحيث تتولّد المواد الجديدة، وحيث تنطمس وتخرج المواد من الباطن إلى السطح وبالعكس. إنها حركة دائمة، والحركة الدائمة هذه الموجودة في الجماد والموجودة في حياة النبات والحيوان تعمل في اتجاه معين وحسب غاية معيّنة هي البقاء والتغيير المتجدّد الذي يخلّد البقاء.

إن كل ما في الطبيعة مما هو حي وما هو جامد له حقيقة هي جوهره وماهيّته، وأن تلك الحقيقة هي في عملية تكشُّف مستمر وظهور تدريجي متواصل من خلال الحركة وعدم السكون. . ومن خلال كل ذلك تؤكّد الحقيقة وجودها وتدلّل على ماهيتها بوصفها موجودة وفاعلة وقادرة على البقاء والتجدّد. من كل ذلك يتّضح أن عملية المحافظة على الوجود لا تعني الركود في شكلٍ واحد والسكون على حالة واحدة، بل إن صفتها الأساس هي الحركة. والحركة فيها التغيير والتباين، إلا أن الغاية النهائية هي البقاء من خلال إظهار التجدّد عن طريق الحركة. فالبقاء يتضح من خلال التجديد، لذلك فإن كانت هناك معادن تنضب بسبب استخدام الإنسان لها أو بسبب حركة الكلّ، فهناك أيضاً ظهور

البدائل عن هذا الطريق أو ذاك، الأمر الذي يجعل الحصيلة النهائية ليست اختفاءً بل وجوداً، وليست سلباً محدّداً بل إيجاباً محدّداً.

إن كل ما في الطبيعة من حيوان ونبات في حركة دائمة، والحركة الدائمة هذه حركة هادفة وليست عمياء، بل لها قصد محدّد هو التطوّر. وأول ما يعني التطوّر هو التكيّف للظروف غير المؤاتية وتطوير الوسائل للبقاء والدفاع عن النفس. لذلك كانت معدة الجمل متلائمةً مع قلّة الماء في الصحراء، وأقدامه متلائمةً مع المشي على الرمال، ولذلك كانت لدى بعض الحيوانات القدرة على تغيير ألوانها من أجل الاختفاء وسط محيطه، وكانت لكل حيوان طريقة ما للدفاع عن نفسه سلباً أو إيجاباً. والمقصود بالسلب هو اتقاء الخطر القادم، وبالإيجاب هو تحقيق الهدف نفسه عن طريق مهاجمة الآخرين. لذلك كانت هناك حيوانات غير مؤذية وأخرى مؤذية، والكل المؤذي وغير المؤذي يهدف إلى الدفاع عن نفسه والسعي من أجل البقاء ولكن بصيغ ووسائل مختلفة.

حقاً إن دراسة علم النبات وعلم الحيوان تظهر بجلاء كم هو رائع ذلك النظام المفصّل الواسع الذي ينظمها جميعاً في كل شيء من الولادة حتى الممات! وكم هو مفصّل ومعقّد ذلك النظام الذي يحكم أجسامها! وكيف تتكيّف وكيف تتطوّر وكيف تتفاعل وكيف تعمل لتؤدي واجباتها من أجل الهدف الأكبر، ألا وهو البقاء واستمرار الحياة! إنه تبسيط متناهٍ، وسطحية مفرطة أن نعتبر القول بوجود ذلك النظام متناقضاً مع ظواهر الموت والصراع في عالم النبات والحيوان حيث يهاجم بعضها بعضاً ويؤذي بعضها بعضاً وحيث يختفي بعضها من الوجود. إنه تبسيط لأننا عندما نقول بوجود النظام والغاية الأساسية لا نعني السكون كما

أوضحنا ولا نعني الجزء، فالنظر يجب أن يكون على أساس الكلّ وعلى أساس النظر إلى الأمور حسب نتائجها النهائية. إن النظام موجود وله هدف سام وغاية مثالية هي البقاء والتطوّر.

ولا يشذّ عن ذلك الإنسان باعتباره جزءاً من الكون، لا بل إن وجود النظام يتضح بأحسن حالاته في الإنسان. إن معرفة أولية بعلم التشريح تُظهر من دون لبس دقة النظام الذي يعمل بموجبه جسم الإنسان ككائن حيّ. إن صفات الدقة والتعقيد والانسجام والفعالية والتناسق التي تتجلى في تشريح جسم الإنسان بما في ذلك العقل تدلّل بما لا شك فيه على أن هذا الكائن يعمل حسب نظام دقيق من لحظة التكوين إلى لحظة الفناء. وتلك حقيقة يعرفها الطبيب بأحسن ما تكون المعرفة.

كما أن هذا النظام ليس موجوداً فقط، بل إن تناسقه وبنيانه وطريقة عمله تدلّ كلها على وجود الغاية: البقاء والاستمرار. إن النمو والمناعة وطريقة عمل مختلف الأجهزة وعلاقتها ببعضها تبيّن وجود الغاية وتدلّ على الهدف. فهو نظام يعمل من أجل غاية، وليس مجرد علاقات ميكانيكية تكرر نفسها بصورة عشوائية فوضوية. تلك حقيقة مادية يبرزها علم التشريح بصورة جليّة للملاحظ الاعتيادي، وبصورة أوضح وأدق للمختصّ.

ـ ٣ ـ

ولننقل المناقشة خطوةً أخرى فنقول إن النظام الذي شخّصنا وجوده في الكون ومحتوياته المهمّة يعمل بطريقة التقابل، بمعنى وجود

الازدواجية وليس الإنفراد. ولعلّ أفضل وسيلة لإيضاح المقصود هو الإنسان الذي قُلنا عنه إنه نقطة البداية

في جسم الإنسان قوتان هما العقل والغريزة. العقل هو أداة التمييز والنظر في الأمور وتقويم معانيها وفهمها وبالتالي اتخاذ الموقف إزاءها؛ والعقل مَلَكَة فنية للنظر في الأمور وتكوين المعرفة عنها وبالتالي تزويد الإرادة، أو كامل الشخصية الإنسانية، بالمعلومات الضرورية لاتخاذ القرار. إنه باختصار أداة تكوين المعرفة عن الأشياء سواء أكانت داخلية تتعلّق بداخل النفس أم خارجية تتعلّق بالمحيط.

أما الغريزة فهي دوافع ومحفّزات داخلة في التركيب الجسمي للإنسان ومندمجة في أجهزة جسمه وظيفتها تدوير عجلة النظام الجسمي. فالطعام والشراب والتكاثر والنمو وما يتصل بذلك من مشاعر عاطفية ورغبات مصدرها الغرائز الموجودة في الإنسان والتي تشكّل جزءاً من النظام الذي يعمل الجسم بموجبه مؤدياً واجباته اليومية وصولاً في النهاية إلى هدف البقاء والاستمرار.

والغرائز موجودة في الحيوان أيضاً وتشكّل القوة المحرّكة للأجهزة الجسمية التي تُسيِّر الحياة وتدفع في اتجاه المحافظة على الوجود من طعام وشراب وتكاثر.. إلخ. وفي النبات أيضاً توجد تلك الدوافع التي تفعل المفعول نفسه تقريباً، ألا وهو الحصول على الطعام وتأمين البقاء والنمو والتكاثر.

إذن، ثمة في الإنسان والحيوان والنبات قوةٌ ماديةٌ مندمجةٌ في التركيب الجسمي تؤدي وظيفة الدفاع عن النفس والمحافظة على البقاء وضمان النمو. ووجود هذه القوة في جميع الكائنات الحية إنْ هو إلاّ

دليل ملموس على وجود الغاية لدى هذه المخلوقات، ووجود الغاية يعني وجود اتجاه معيّن، الأمر الذي ينفي العشوائية والفوضى وعدم الجدوى. إن مجرد وجود قوة ذاتية داخلية في التركيب الجسمي التشريحي للكائنات الحيّة ابتداءً من الإنسان حتى النبات تقوم بمهمة محدّدة ذات هدف هو النمو والتكاثر والمحافظة على البقاء، إنما يدلّل على الهدف والغاية وينفي الفوضى والعشوائية والعبث. وبهذا المعنى، فهو هدف سامٍ أخلاقي يعود إلى عالم المُثُل العليا لأن البقاء والاستمرار والدفاع عن النفس قيمة عُليا وهدف مثالي أخلاقي بعكس الفوضى والعشوائية والعبث.

إن هذا المسعى الذي تتسم به حياة الكائنات الحيّة إنما يجري بشكل تفاعلي وليس بصورة ساكنة، ويعني ذلك انه متحرّك وليس جامداً. فكلما وُجِد النقيضُ حصل خلق الظروف الملائمة لمقابلة النقيض بنقيضه، أي موازنته بما يُذهب مفعوله ويُبطل أثره الضار، وذلك ما ندعوه بقابلية التكيّف ومجابهة الظروف. إن سعي الإنسان عن طريق الغريزة وسعي الحيوان والنبات عن الطريق نفسه إلى التكيّف للظروف غير المؤاتية ومجابهة الصعوبات التي تؤثّر في الحياة بصورة سلبية، أي التأثير السلبي على الهدف السامي الذي ذكرناه: المحافظة على الوجود.. أقول كلما حدث ذلك تحرّكت قوة الغريزة وأعادت تكييف أوضاع الجسم لمقابلة تلك الظروف وإبطال مفعولها. إن ذلك أمرٌ معروف أيضاً في علم التشريح وعلم الحياة، فقد تطوّرت أجهزة الجسم البشري بما يُلائم الظروف، وكذلك تطوّرت أجسام الحيوان وحتى النبات، والدافع إلى ذلك هو غريزة المحافظة على الوجود وضمان البقاء.

إن القول بذلك لا يعني أن هذه القوة متساوية في جميع الكائنات، أو أنها تعمل بالطريقة نفسها عند الجميع، إلا أنها موجودة في كل الأحوال. ولا يفوتني في هذا الصدد أن أذكر أن القول بذلك يجب ألاّ يُوحي بأن المحافظة على الوجود تعني خلود ذلك الكائن، بمعنى تجنّب الموت إلى الأبد. فليس ذلك هو المقصود. فالمحافظة على الوجود لا تعني انعدام الموت، إذْ لكل كائن حدودٌ لحياته لا بد أن تنتهي، ولكن ضمن مرحلة الحياة هذه تعمل قوة الغريزة للمحافظة على الذات والدفاع عن الوجود.

كما أن مسعى هذه القوة يتمثّل أيضاً في عملية تكرار النوع. فالإنسان الذي يموت قد يولّد إنساناً آخر، والحيوان الذي تنتهي حياته تعمل غريزته على إكثار نوعه قبل الموت وكذلك النبات. بعبارة أخرى، إن طلب البقاء موجود والقوة المحرّكة لذلك موجودة، وإن كانت تعمل في حدود دوائر معيّنة تنتهي عند حدودها حياة الكائن الحي ليحلّ محله كائن حيّ آخر. وهكذا يكون مجرى الحياة اليومية متسماً بالتفاعل والتناقض والتقابل بين الأضداد، كما يتسم بالتعرّج هبوطاً وصعوداً. إلا أن الحصيلة النهائية تُظهر وجود الدافع للبقاء والمحافظة على النفس والاستمرار.

إنني أتجاوز في هذا المجال التعرّض للسؤال الذي ربما يخطر على البال في مجال التفكير الاعتيادي الذي يحاول أن يتصوّر شكل العالم لو كان خالياً من عملية الموت بالنسبة للكائنات الحيّة: كيف سيكون وضع العالم لو كانت جميع الفعاليات الحيّة مستمرة من تكاثر وغيرها إلا أن فعالية الموت غيرموجودة؟ إنه حديث ظاهره البساطة إلا

أن مغزاه ليس كذلك لأنه يعني ـ لو أنه حصل فعلاً ـ الدخول في بداية طريق الفناء، ولأصبح بالتالي دليلاً ليس على وجود الغاية والهدف السامي بل دليلاً على عكسهما.

فالموت ـ بمعنى من المعاني ـ يؤدي عملياً إلى جعل الحياة ممكنة، وعدم وجوده يعني عكس ذلك. وذلك تناقض في الظاهر، إلا انه ليس كذلك في الحقيقة. وهكذا يكون الموت عامل توازن، وهو بهذا المعنى عاملٌ إيجابي بدلاً من أن نتصوره على العكس من ذلك. ولكن الغريزة التي تعمل في الإنسان وبقية الكائنات الحيّة إنما هي قوة محرّكة في اتجاه محدّد، وليس لهذه القوة إمكانية التوازن بمعنى أنها لا تعرف دائماً حدود ما يجب أن تقف عنده، وليس من صفاتها الموازنة الذاتية. إن الموازنة الذاتية التي تحفظ الغريزة ضمن الحدود المرغوب فيها غير موجودة في جوهر الغريزة، لذلك فهي في عملها قد تكون ضمن الحدود وقد تكون خارج الحدود. فهي عندما تكون داخل الحدود يكون أثرها العملي إيجابياً، ولكنها عندما تكون خارج الحدود يكون أثرها سلبياً وإنْ كانت غايتها إيجابية. إن الغاية، في الأساس، هي المحافظة على الوجود، ولكن هذه الغاية في تأثيرها العملي تختلف من مرحلة لأخرى ومن حالة لأخرى. وهنا يُمكن أن تتكوّن حالة تكون الغاية فيها هي المحافظة على الذات، إلا أن أثرها العملي يُمكن أن يكون غير ذلك، ألا وهو تحطيم الذات عندما تتجاوز الغرائز حدوداً معيّنة وتدخل مرحلة الاصطدام بالآخرين.

إن الدافع هو حفظ الذات، إلا أن النتيجة العملية يُمكن أن تكون تحطيم الذات. ففي الإنسان غرائز تدفعه إلى السعي للحصول على

وسائل العيش من أجل البقاء والاستمرار، إلا أن الغريزة ـ بسبب فقدان قوة التوازن في جوهرها ـ يُمكن أن تدفع ذلك الإنسان إلى أبعد مما يحتاجه فعلاً لتحقيق تلك الغاية، فيخرج نشاط الغريزة عن نطاق الحدود، فيصطدم بالآخرين ويقف موقف الضدّ من القانون والعُرف الاجتماعي، فيؤدي ذلك إلى نتائج سلبية بالنسبة له أو بالنسبة للآخرين، وهذا هو معنى الجريمة.

وفي الحيوان، تدفع الغريزة في اتجاه المحافظة على الذات في المسعى للحصول على الطعام والشراب واتقاء عوارض المناخ واعتداء الحيوان الآخر. ويُلاحظ أن هذا المسعى يأخذ في بعض الحالات شكلاً سلمياً، وفي بعضه الآخر شكلاً غير سلمي؛ وهو في بعض الأحيان غير مؤذٍ للآخرين وفي بعضها الآخر غير ذلك. . وهكذا.

ومن ذلك يتضح أن الدافع واحدٌ إلا أن الوسائل تختلف والشكل يتباين، وسبب ذلك هو نفسه ألا وهو أن الغريزة عمياء تفتقر لقوة التوازن الذاتية. إن صفة الافتراس في بعض الحيوانات ليست مسألة تمتّ للجوهر، بل هي حالة من حالات فقدان البصيرة في الغريزة، وهي في هدفها النهائي لا تختلف عمّا يقوم به الطير الوديع في مجال التفتيش عن طعامه إلا أنها صورة مختلفة من الصور المتعدّدة لعمل الغريزة ونشاطها. لذلك يُلاحظ أن صفة الافتراس والتوحش عند الحيوانات المفترسة قابلة للتغيير، مما يدلّ على أنها لا تمتّ للجوهر بل هي صورة من صور تحرّك الغريزة ونشاطها الأعمى. فالمفترس يُمكن أن يُدجَّن، وطباع الحيوان المؤذي يمكن أن تتغير برعاية من الإنسان. إن الكثير من الصفات غير المرغوب فيها في الحيوان والنبات أصبحت قابلة للتغيير

عن طريق التدجين، ومؤخراً عن طريق ما يُسمى بعلم الهندسة الوراثية. إن جهود التدجين والتطوير الوراثي تهدف إلى إبدال حالة بحالة أخرى في مجمل حالات الغريزة المتعدّدة. فالغريزة في حركتها تتخذ حالات متباينة ومختلفة لأنها قوة عمياء غير مبصرة، لذلك فبإمكان الإنسان الذي يملك العين التي يستطيع أن يبصر بواسطتها، وهي العقل، أن يُغيِّر الحالات غير المرغوب فيها إلى حالات مرغوب فيها في الحيوان والنبات.

ولعلّ أهمّ ما يمكن أن نستنتجه من ذلك هو التوصل إلى جواب منطقي عن طبيعة ما نجده في الكائنات الحيّة من حالات الأذى والاعتداء والافتراس والأوضاع غير المرغوب فيها كافة.

□ هل وجود صفات الافتراس وصفات الأذى والحالات السلبية في الكائنات الحيّة دليل على اتجاه يتعلّق بالمُثُل العليا؟

□ هل يدلّ عالم الحيوان والنبات على اتجاه شرير؟

الجواب كلا. إن ما نُلاحظه من حالات سلبية كالافتراس في بعض الحيوانات واعتداء بعضها على الإنسان وعلى بعضها بعضاً، والأضرار الناتجة عن الحيوان وبعض أصناف النبات كالأدغال الضارّة مثلاً، لا تدلّ على اتجاه غير أخلاقي يُلقي ظلاً قاتماً على طبيعة الكون ومغزى العالم الموجود. إن هذه الصفات ليست إلاّ إحدى الحالات التي تخلقها دوافع الغريزة في سعيها من أجل البقاء. إلا انها بسبب فقدان البصيرة وانعدام قوة الموازنة الذاتية قد تخرج عن نطاق حدود النافع وتدخل نطاق المضرّ. وهي لو توفرت لها العين المبصرة، كما

توفرت للإنسان، لأمكن تجنبها. فالإنسان الذي يملك العين المبصرة يستطيع أن يزيل أو يعدّل الكثير من هذه الحالات.

ـ ٤ ـ

الخطوة التالية في البحث هي أن نتناول وضع الإنسان في الكون. فالإنسان جزءٌ من الكون، إلا انه جزءٌ خاص بمعنى أنه الجزء المتطوِّر من الكون، لذلك فهو نقطة البداية.

إن المحيط الذي نعيش فيه يشفُّ عن أهمّ ما يتسم به الكون ألا وهو النظام. والنظام له غاية سامية، ويتضح سمو الغاية في عالم الحيوان والنبات في مسعى الغريزة إلى البقاء والاستمرار، أي إلى المحافظة على الوجود. وهذا الدافع عينه موجودٌ في الإنسان، ولكن بصورة متطوّرة ومركّبة. ففي الإنسان غريزة يشترك فيها مع باقي المخلوقات الحيّة. فهي قوى تسيّر الأجهزة وتُديم الحياة وتحقّق الاستمرار، ولكن ثمة في الإنسان، إلى جانب ذلك، إحساساً مثالياً هو الميل إلى الخير، وهو ما ندعوه بـ الضمير.

في الإنسان إحساسٌ بالمُثُل العليا والمبادىء الأخلاقية بغض النظر عن موضوع تلك المُثُل والمبادىء. وبعبارة إخرى، أياً كان التعريف وما يتصل به، مهما كانت العلاقة وما ينتج عنها ويترتب عليها مما يكوّن مادة علم الأخلاق.. نقول: بغض النظر عن ذلك، هناك ميل في الإنسان يدفعه في اتجاه الأفضل والأحسن، وهو ما ندعوه بالضمير. إن الأدلّة على وجود هذا الميل متوفرة، فتاريخ البشرية عامة يؤشر خطأً

بيانياً صاعداً في التقدم وتحسين الحياة وتقويم الاعوجاج، متجسّداً بظهور الأديان وحركات الإصلاح والثورات التحررية والاكتشافات والاختراعات والأعمال والجهود التي عملت على تحسين حياة الإنسان وجعلها أفضل وأسهل وأكثر عدالة.

إن أهداف العدل والحرية والرفاهية والتقدم كانت دوماً في مقدمة مساعي الإنسان بشكل أو بآخر. إن جميع تلك المساعي هي التي نقلت الإنسان من شكل الحياة الأولى قبل ظهور المجتمع إلى الوضع الذي هو عليه الآن، ولا يزال المسعى مستمراً والجهود متواصلة للارتقاء إلى ما هو أفضل. فنضال الإنسان عبر التاريخ كان بشكل أو بآخر مشدوداً إلى مبادىء الحق والعدل والحرية والتقدم والإنصاف وإن اختلفت المفاهيم وتباينت الطرق ونتائج تلك المساعي. المهمّ هو أن هذا المسعى كان دوماً موجوداً. والذي يُفسِّر ذلك هو وجود ميل في داخل كل إنسان يدفع في اتجاه الخير. إن الإنسان قد يفهم هذا الدافع بأشكال مختلفة وقد يعبّر عن ذلك بوسائل مختلفة، إلا أن جوهر الدافع يبقى هو نفسه دافع الضمير. إن قوة الضمير موجودة في كل إنسان وإنْ تباينت من وقت لآخر ومن إنسان لآخر ومن حالة لأخرى. فالشعور بالمُثُل العليا والدافع الأخلاقي يكون في أقوى حالاته عند الأنبياء وفي أضعف حالاته عند عُتاة المجرمين. أما بقية الناس فتتراوح مواقفهم بين هذين القطبين، ويعني ذلك أنه حتى كبار المجرمين لا تخلو نفوسهم من الضمير مهما كانت درجة فعاليته وقوته في السيطرة على مجموع الشخصية.

إن دراسة التاريخ في مجال العمل وفي مجال الفكر توضّح أن

هدف المصلحين جميعاً كان التوصّل إلى حالة يعتقدون أنها أفضل من الحالة الموجودة. والغرض الأساسي من جميع النظريات والأفكار التي صاغها المفكِّرون والمصلحون هو إرشاد البشرية إلى ما هو أفضل وأحسن وأقوم. ويُلاحظ أن هدف الثورات كان الإصلاح ونقل المجتمع من وضع إلى وضع أفضل منه، وكذلك الحال بالنسبة للاختراعات والاكتشافات والإنجازات الفكرية والعلمية كافة. إن الاجتهادات تختلف حول ما هو الأفضل، إلاّ أن القصد كان دوماً الارتقاء مهما كان الشكل الذي يتخذه.

إذن، فالاتجاه نحو الخير موجود في التاريخ ويتمثّل في تفكير الإنسان وتصرّفه. إلا أن الاتجاه نحو الخير يقابله اتجاه آخر موجود أيضاً، هو الاتجاه نحو الشرّ. والاتجاه نحو الشرّ يتمثّل في الأنانية واستغلال الإنسان للإنسان الآخر، كما يتمثّل في الجريمة والظلم والقسوة وفي جميع أشكال الاعتداء على الآخرين وجميع أصناف التصرف والأعمال التي يعتبرها المجتمع والعُرف خارجةً على ما هو مقبول. وهذا الاتجاه نحو الشرّ هو في حقيقته خروج الغريزة عن الحدود.

والذي يُلاحظ في التاريخ كاتجاه عام هو أن اتجاه الخير في حالة صراع دائم مع اتجاه الشرّ، والعلاقة بينهما كانت دوماً علاقة تناقض ومحاولة كل اتجاه التغلّب على الاتجاه الآخر. فكلما ساد الظلم واضطرب المجتمع، ظهر اتجاه الخير بفعل يقظة الضمير عند فرد أو مجموعة أفراد مناهضاً لاتجاه الشرّ وقام الصراع بينهما. إن عملية الصراع ليست مبسّطة بل معقّدة تعقيد الحياة. فالشرّ قد ينتصر في البداية

وتضطر إرادة الخير إلى التراجع، إلاّ أنها سرعان ما تعود ثانية أقوى مما كانت عليه في الجولة الأولى ويحصل الاصطدام ثانية.. وهكذا في عملية كرّ وفرّ متواصلة وصعود وهبوط متّصلة إلى أن تنتصر إرادة الخير في النهاية. وتعبّر إرادة الخير المنتصرة عن نفسها بشكل نظام جديد ووضع جديد للمجتمع. وبمرور الوقت وبفعل التطوّر يصبح ذلك النظام أو الوضع قديماً وتظهر فيه العيوب و تنمو في جسمه الأمراض فيتحفز الضمير ثانية لمقاومته بشكل اتجاه جديد لتغيير الموجود إلى الأحسن.. وهكذا تستمر العملية، عملية الصراع بين الأوضاع الموجودة وضمير الإنسان الذي يدفع دوماً نحو الارتقاء والتقدّم.

إن عملية التناقض هذه صفة عامة وأساسية من صفات التقدّم الاجتماعي. وهنا أيضاً لا توجد صفة واحدة أو شكل واحد تتجسّد فيه بل تتباين الأشكال، فهي قد تكون نظاماً كلّياً للمجتمع وقد تكون أقلّ من ذلك مكتفية بجزءٍ منه. وقد تجري سلمياً، كما أنها قد تتخذ شكل الثورة. وقد يقوم بها فردٌ مصلح أو مخترع، وقد يقوم بها أفراد قلائل، كما قد تندمج فيها الأكثرية. ويُلاحظ أيضاً أن عملية التطوّر قد تكون حاسمة ظاهرة للعيان تتخذ شكل تغيير حاد في وضع المجتمع كالذي ينتج عادة عن الثورات المسلحة، كما قد تتخذ شكلاً هادئاً غير محسوس يتكوّن من خلال التراكم البطيء الذي لا تتضح آثاره إلاّ بعد مدة طويلة من الزمن كما هي الحال في تغيير العادات والتقاليد وأنماط المعيشة.

المهمّ في كل ذلك ليس الشكل المحدّد الذي تنطوي عليه النظريات المختلفة في عملية التطوّر، بل المهمّ هو أن التطوّر يحصل

وقد حصل فعلاً خلال حقبات التاريخ. إن مجرد حصول ذلك التطوّر نحو الأحسن لدليلٌ على وجود اتجاه إلى الخير يتمثّل في نزوع الإنسان المستمر بدافع قوة الضمير نحو الأفضل لتحقيق مُثُل عُليا. وهذا ما يهمّنا في هذا الصدد، أما شكل النظام فهو موضوع النظريات. إذن الصراع والتناقض صفة عامة ملازمة للتاريخ، ومن خلالها تتمّ عملية التقدّم الاجتماعي. والمحرّك لها هو اصطدام إرادة الخير مع دوافع الغريزة الخارجة عن الحدود التي ندعوها «الشرّ».

وفي هذا الصدد أود أن أتناول قضية تتعلّق بمحتوى ما ينتج عن الصراع بين الاتجاهين. إن إرادة الخير وإرادة الشرّ عندما تتقابلان في حومة المجتمع يحدث ذلك بأفكار محدّدة أي بنظم محدّدة. فلكل اتجاه نظامه الذي يُدافع عنه، ولكلٍ فكرته التي يُنادي بها. وبعبارة أخرى، إن الصراع يجري في الحقيقة بين الأفكار، فللخير فكرته كما للشرّ فكرته، وكلّ يرى أو يدّعي أن فكرته هي الحق بغض النظر عن نوع تلك الفكرة وتفاصيلها. المهمّ أن الاصطدام يحدث بين موقفين إزاء شأن ما من شؤون المجتمع سواء أكان مادياً أم معنوياً، دينياً أم دنيوياً، ملموساً أم غير ملموس. . إلخ. المهمّ هو أن الصراع يتمّ بين فكرتين أو موقفين.

إن عملية الصراع هذه لا تأخذ شكلاً واحداً في التاريخ بل تتباين من وقت لآخر. فقوة التوازن بين الاتجاهين متباينة أيضاً. إن مركّباً من الاعتبارات والعوامل يُقرّر في النهاية نتيجة الصراع وبالتالي ما يتمخّض عنها. والمركّب هذا ليس واحداً في كل زمان ومكان بل لكل زمانٍ ومكانٍ مركّب خاص به، ولذلك تكون النتائج متباينة هي الأخرى.

إلا أن الذي تجب الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن الاتجاه العام

لعملية الصراع يشير إلى أن النتيجة تكون نوعاً من التلاؤم بين الاتجاهين. والمقصود بالتلاؤم ليس بالضرورة السلم والصلح، بل المقصود به هو أن النتيجة تكون حاوية لعناصر من الاتجاه الجديد وعناصر من الاتجاه القديم، وذلك ما يُدعى في اللغة السياسية الدارجة بالحلول الوسط. إن القول بذلك لا يعني نقطة الوسط في المسافة بين الاتجاهين، ولا يعني التراضي الواعي بين أصحاب الاتجاهين، بل يعني أن اتجاه الخير الذي ينتصر في النهاية لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار بعض سمات ما هو موجود، أي الاحتفاظ ببعض عناصر الوضع الذي ثار عليه. إن مقدار ذلك ومداه يتباينان من حالة لأخرى، إلاّ أن عملية التلاؤم النسبي بين الجديد والقديم تحصل عندما يصطدمان. لذلك لا نجد حالة تغيَّر فيها المجتمع كلياً من وضعٍ إلى وضعٍ بعملية اصطدام واحدة. فالجديد عندما ينتصر يُغيِّر أموراً أساسية في المجتمع، إلاّ أن بعض بقايا القديم تبقى متلبثة حتى تأتي عملية اصطدام أخرى أو عمليات اصطدام متعدّدة لتغييرها. . وهكذا.

المهمّ في كل ذلك هو التنويه بأنه ليس من قبيل الإخفاق أن يقبل اتجاه الخير بالحلول الوسط في عملية التقدّم الاجتماعي. فالمجتمع كيانٌ معقد لا يمكن تغييره كلياً بعملية اصطدام واحدة. إن فكرة الحلول الوسط ليست فكرة رديئة كما قد يتصوّر بعضهم وليست مخرجاً تراجعياً يبعث على الإحباط، بل يجب النظر إليها على أنها أمر يُمكن قُبوله وعلى أنها من صميم عملية التقدّم. والسبب هو أن الحقيقة ليست أمراً يستطيع الإنسان أن يكتشفه دفعةً واحدة ومرةً وإلى الأبد ليستطيع الادّعاء بأنه يمثّل الحق بكامله، بل إنها تتكشّف بالتدرج من خلال التاريخ، لذلك

وجب الاحتراس والتحفّظ في مسألة الموقف وترك هامش للرأي القادم. إن الحلّ السليم لكل أزمة هو الحلّ الذي ينطوي على عناصر من كلا الاتجاهين المتقابلين اللذين جرى الاصطدام بينهما بشكل أو بآخر. فالثورة الشيوعية في روسيا أحلّت نظاماً جديداً محلّ النظام القديم، إلا أن أحداً لا يستطيع القول إن المجتمع القديم قد زال تماماً وإن جميع صفات الوضع القديم ومعالمه قد تغيرت، بل بقي من القديم شيء لمدة من الزمن طالت تلك المدة أم قصرت. كما أن اختراع آلة جديدة لا يستطيع أن يزيل استخدام الآلة القديمة كلّياً ودفعةً واحدة، بل لا بد أن تبقى الآلة القديمة في الاستعمال لمدة من الزمن طالت تلك المدة أم قصرت.. وهكذا. وبين هذين المثالين تقع الحالات الأخرى من التغييرات التي حصلت وتحصل في التاريخ نتيجة للصراع بين القديم والجديد.

ومثلما يصحّ ذلك على نطاق المجتمع، يصحّ أيضاً على نطاق الأفراد عندما يخوضون عمليات صراع بين إرادتين واحدة للخير والأخرى لما هو ضده. ودعونا نتوغلْ أكثر في مناقشة موضوع إرادة الشرّ الموجودة في التاريخ. إن هذا الميل موجود في الإنسان كما أوضحنا سابقاً، ويُلاحظ وجوده أيضاً في الكائنات الحيّة الأخرى. فالحروب والاستغلال والجريمة وجميع أصناف الاعتداء وُجدت بين البشر في كل حقبات التاريخ، وهي موجودة في الكائنات الحيّة. فهناك صفة الافتراس عند الحيوانات بعضها لبعض، وهناك صفة الأذى والضرر الذي تلحقه بعض الحيوانات بالإنسان وبالبيئة وببعضها بعضاً. وفي النبات هناك ما هو مضرّ وما هو مؤذٍ للآخرين وما هو مؤذٍ لنباتات

أخرى . . وهكذا. إن جميع هذه الصفات تُكوِّن بمجموعها اتجاهاً معاكساً لاتجاه الخير الموجود في الكون الذي يتمثّل بأنصع صوره في ضمير الإنسان. وقد قلنا سابقاً إن الذي يُديم الحياة في عالم الحيوان والنبات هو الغريزة. ولكن من صفات الغريزة أنها غير مبصرة، وليس فيها ما يوقفها عند حد معيّن إلا الضمير الموجود في الإنسان.

إذن فالغريزة عندما تعمل من أجل إدامة الحياة تكون ذات صفة مثالية، أي أنها تعود إلى عالم المُثُل العليا وتُمثّل بشكل من الأشكال إرادة الخير الكلّية الموجودة في الكون. إلاّ أنها عندما تتجاوز ذلك وتخرج عن حدودها بسبب فقدان البصيرة والقدرة على التحكّم بذاتها تصبح خارج حدود إرادة الخير وتدخل في مجال الشرّ. وهكذا، فاتجاه الشرّ هو في حقيقته إرادةٌ محرّكها الأول إرادة الخير أي إدامة الحياة. إلاّ أنها بسبب فقدان البصيرة تخرج عن الحدود وتصبح مضرّة تُلحق الأذى بالآخرين مكوِّنة اتجاهاً جديداً معاكساً لاتجاه الخير. وعلى ذلك يُمكننا تعريف الشرّ بأنه غريزة سائبة خرجت عن حدود غايتها الأولى: إدامة الحياة. فهي وإنْ كان دافعها الأصلي الخير إلا أنها أصبحت في عداد اتجاه الشرّ بسبب فقدان البصيرة والخروج عن الحدود. لذلك فالطمع والاستغلال والسرقة، وكل ما يدخل في عداد ذلك، إن هو إلا رغبة في الحياة والتملّك خارج حدود معيّنة. إن الحصول على الأشياء من أجل إدامة الحياة أمرٌ مشروع وعملٌ من أعمال الخير عندما يكون في حدود عدم الإضرار بالآخرين، إلاّ أنه عندما يتجاوز ذلك ليلحق الضرر بالآخرين يصبح في عداد الشرّ. وهكذا تكون الغريزة في بدايتها ودافعها الأول عاملاً من عوامل الخير ودليلاً على هذا الاتجاه في الكون، إلاّ أنها

يُمكن أن تتحوّل إلى الشر إذا لم تحكمها إرادة الخير وتسيطر عليها بصيرة المُثُل العليا لتبقيها في دائرة الخير وتمنعها من الخروج عليها. وهكذا، وعلى هذا الأساس، فإن الكون في أساسه يحتوي على إرادة مثالية هي إرادة الخير التي يُمثّلها السعي الموجود لدى جميع الكائنات الحيّة إلى الوجود والبقاء والاستمرار. إن هذه الإرادة الكلّية المثالية تُعبِّر عن نفسها بأشكال شتى. فالغريزة شكلٌ من أشكال التعبير إلاّ أن الضمير هو الشكل الناصع الذي تتمثّل به، وهو موجود في الإنسان.

إذن، فالكون نظامٌ وليس فوضى، ويتصف بالغاية وليس بالعبث، وفيه إرادة كلّية تقف وراء هذا النظام وعنها تنتج الغاية. ويتمثّل ذلك بإرادة الخير الموجودة في جميع الكائنات الحيّة بشكل غريزة وبشكل ضمير. إن النظام والغاية لا يمكن أن يوجدا بدون مسبِّب، والمسبِّب هو القوة الكلّية المهيمنة الشاملة.

لقد أدرك الإنسان ذلك عبر التاريخ بدرجات متفاوتة وعبَّر عن ذلك بأشكال عديدة، وليست الأديان إلا صياغات لذلك الفهم المتباين من دين إلى دين ومن زمن إلى زمن. ففي المراحل الأولى كانت هناك الأديان الوثنية حيث لم يستطع الإنسان آنذاك إلا مجرد الالتفات إلى حالة الكون، فكان فهمه جزئياً ناقصاً وبسيطاً. وفي الأديان التي تقدمت على ذلك ازدادت المعرفة فتطوّر الفهم ومعه تطوّرت الصورة التخيّلية لوضع الكون.. وهكذا صعوداً حتى أتى الإسلام. إن الذي يقرأ أسماء الله الحسنى يُدرك الفهم التفصيلي المتطوّر والواضح لطبيعة إرادة الخير الكلّية التي تُنظِّم الكون وتُسيِّره بإرادتها، ومفهومها في الإسلام هو الله.

إن النظام الذي تحدّثنا عنه لا يتجلى في حالة كما يتجلى في

الإنسان. ففي الإنسان يتمثّل النظام بأجلى صوره وتتضح الغاية المثالية بأكمل وضعها، ذلك لأن في الإنسان غريزة وفيه ضميراً ولكن فيه عقلاً أيضاً. إن الضمير هو إرادة الخير التي توجد في كل إنسان بشكل أو بآخر، وهي إرادة الخير والسبيل نحو المُثُل العليا بغض النظر عن تحديد تلك المثل.

ـ ٥ ـ

ولكن الإنسان الذي تتجلى فيه ومن خلاله إرادة الخير على هيئة الضمير، يمتلك خاصيةً أخرى غير الضمير هي العقل. فالضمير إرادة في اتجاه معيّن وميل محدد مشتقّ من إرادة الخير الكلّية، أما العقل فهو مَلَكَة فنيّة وليس صفة مثالية. العقلُ وضع جسمي يعود إلى تركيب الجسم، في حين أن الضمير وضع يعود إلى النفس، لداخل النفس أي للأحاسيس التي تتكوّن فيها. والعقل هو القدرة على النظر في الأمور وفحصها وتقليبها وقياس مدى صحتها أو خطئها حسب المتوافر من مقاييس الخطأ والصواب التي مصدرها الضمير. العقل، إذن، هو القدرة على فحص الأمور، لذلك فالتحليل والدراسة والاستيعاب والاستنتاج والاستقراء هي فعاليات تعود إلى تلك المَلَكة التي نسمّيها العقل ومقرّها الدماغ.

إن إرادة الخير هي في صراع مستمر مع إرادة الشرّ الناتجة عن تطرّف الغريزة وخروجها عن دائرة المسموح به. ويسعى الضمير إلى ضبط الغريزة بوضع القواعد لنشاطها وضبط مسارها وتقنين حركاتها.

والإنسان في هذا المسعى يخلق القوانين والأنظمة الاجتماعية ويضع قواعد التصرّف والنواميس الخُلُقية. إذن، فالغريزة تعمل ضمن الضوابط التي يمليها الضمير ويصوغها العقل للمحافظة على التوازن ولضبط المسار من أجل تحقيق أقصى ما يخدم الصالح العام والصالح الخاص للإنسان. لذلك قيل إن القانون يُمثّل ضمير المجتمع، وإن الأخلاق تُمثّل ميول الخير في الناس.

ولكن الصراع بين الضمير وشذوذ الغريزة يبقى مستمراً. فهناك دوماً ميل عند الغريزة للخروج عن الحدود، كما أن هناك حالات مستجدّة لا تحكمها نصوص القوانين ولا قواعد الأخلاق المعروفة مما يتوجّب معه على الإنسان أن يتخذ موقفاً إزاءها. إذن، ثمة حالات عديدة للصراع بين الخير والشرّ في الإنسان لأسباب عديدة متباينة عليه أن يتخذ من كل منها موقفاً معيّناً، مع الخير أو مع الشرّ، أو أي موقف بين هذا وذاك. المهمّ هو أن الإنسان في جميع هذه الحالات مُطالب بأن يتخذ موقفاً، وهنا يؤدي العقل دوراً مهمّاً.

فالعقل هو أداة الفهم ومَلَكة تقييم الأمور، وفيه تكمن القدرة على الاستيعاب والإحاطة والنفاذ إلى الدقائق ومعرفة الدواخل وتكوين المعلومات. وبعبارة أخرى، إنه أداة التنوير التي تكشف للإنسان ملامح الأمور وصفاتها وتجسّم أمامه معالم المواضيع المطروحة، تماماً كما يفعل النور الكاشف في الظلام يشخّص ما هو موجود أمام السائر فيه، وهو الذي يختار الصحيح ويقترح الحلول والأجوبة.

وكما أن الإنسان يتباين في قُدراته الجسمية في شتى النواحي، كذلك يتباين في قُدراته العقلية التي هي في النهاية من مواضيع الجسم.

لذلك كانت القدرة العقلية عند شخص ما أكبر من القدرة عند شخص آخر، كما يتباين الذكاء الفطري عند الأشخاص. إن التجربة العملية تعني القدرة المكتسبة من قِبَل العقل من الحالات السابقة والمعرفة المتراكمة منها بكل ما ينطوي عليه ذلك من قُدرة على القياس والاستنتاج والاستقراء والمقارنة.

والقدرة العقلية هذه وهي تؤدي وظيفتها تتفاعل مع الأفكار الأخرى وتتعرّض لعوامل وتأثيرات شتى بعضها مساعد وبعضها معرقل لعملية التفكير. ويثير كل ذلك قضية مهمّة هي قضية الموضوعية، أي سلامة عملية التفكير وتحصينها من المؤثّرات. إن العقل كأداة للتفكير مُعرّضٌ لعوامل مؤثّرة تجعل عملية التفكير معقّدة ومعرّضة للانحراف والتشويش. إن العاطفة التي مصدرها الغرائز عامل سلبي. فالرغبات المسبقة والاندفاع العاطفي وكل ما يصدر عن الخضوع المفرط للأنانية يؤدي إلى وضع العراقيل أمام عملية التفكير، أي الرؤية الصافية للأمور. إن العقل كأداة للبصيرة عندما يتعرّض للرغبات والعاطفة والميول الأنانية تضعف قدرته على التشخيص والتمييز وتحديد الأسباب وتعليل الظواهر. وقديماً عبّر عن ذلك أكثم بن صيفي في قوله أمام كسرى: «آفة الرأي الهوى».

ولا تقتصر المؤثّرات السلبية على العوامل الخارجة عن العقل ذاته بل إن العقل وهو يعمل يميل إلى تكوين القوالب، والقوالب ليست إلا أنماطاً من الحلول، والنظرة إلى الأمور تُساعد العقل على إيجاد الحلول السريعة للمشاكل المتشابهة أو المتقاربة. إن قوالب التفكير هي، في الحقيقة، عادات نمطية تتكوّن بمرور الوقت. ويميل العقل البشري إليها بفعل الميل الطبيعي إلى إيثار الراحة عند الإنسان.

فالموقف الذي يُكوِّنه العقل إزاء قضية من القضايا عندما يتكرّر يُشكِّل قالباً جاهزاً. فكلما عرضت قضية متشابهة أو متقاربة يُسارع العقل بفعل عامل إيثار السهولة إلى استدعاء ذلك القالب الجاهز كجواب على المشكلة المطروحة. ونظراً إلى أن قضايا الحياة نادراً ما تتطابق، بل لا بد أن تختلف مهما كانت درجة الاختلاف، لذلك فإن القالب الجاهز لا يوفِّر الجواب الكامل الحقيقي لها. وهكذا يميل العقل إلى استعمال قالب واحد أو حل واحد لقضايا ليست متطابقة بل متقاربة على حساب الدقّة والموضوعية. إن مسألة القوالب أو عادات التفكير من القضايا المنهجية المهمّة، فهي موجودة وتُكوِّن عاملاً مهمّاً من العوامل ذات التأثير السلبي على تفكير الإنسان. لذلك، فإن سلامة الاستقلال التامّ في التفكير ليست مسألة سهلة كما قد يتصور بعضهم. فالتأثير في التفكير إنْ سَلِمَ من التأثير المباشر فهو ربما لا يسلم من التأثير غير المباشر ـ تأثير قوالب التفكير المتكوِّنة عبر الزمن. إننا في كثير من الحالات نتصوّر أننا ننظر إلى الأمور باستقلال وحرية تامّة بسبب غياب التأثير المباشر، في حين أننا ننسى أن نظرنا إلى الأمور يجب أن يكون متحرِّراً أيضاً من العادات الموجودة في التفكير. إننا نعتاد بمرور الوقت على التفكير في هذه المسألة بشكل معيّن، فإذا ما عرضت علينا قضية نعتقد أنها متطابقة وهي ليست في الحقيقة كذلك ـ إنْ لم يكن لأي شيء فلاختلاف الوقت على الأقل ـ سارع تفكيرنا إلى استدعاء ذلك القالب الجاهز أو تلك العادة واستخدمها أداةً للنظر والتقويم.

والعقل، وهو يقوم بوظيفة النظر في الأمور والتبصّر بالظواهر، يمرّ بخطوات. والخطوة الأولى في عملية النظر في الأمور هي الإحاطة

بالمعلومات، أي تمثّل الحقائق المتعلّقة بالموضوع. وتلك مسألة ابتدائية يتمّ فيها نقل الحقائق المهمّة عن الموضوع إلى العقل، وهو ما يُسمّى بالتعريف. والتعريف ليس إلا استيعاب حدود الموضوع ووصف معالمه. فإذا كان أمراً مادياً يكون المطلوب معرفة أوصافه الفيزياوية أولاً والأمور الأخرى المتعلّقة به. وإذا كان أمراً غير مادي يسعى العقل إلى معرفة الصفات والملامح والخواص التي من شأنها تعريفه واستيعابه. تلك هي عملية امتصاص المعلومات عن طريق تعريف الموضوع. وبعد ذلك يسلك العقل البشري الناظر في الأمور الطُرُق المعروفة من استقراء واستنتاج واختبار علمي.

إن عملية تركيز النظر في داخل النفس وإخضاع الجسد والسيطرة على الغرائز تنقل النفس البشرية من وضعٍ إلى وضعٍ. ولعلّ أهمّ ما يتصف به الوضع الجديد هو الراحة والهدوء الناتج عن التخلّص من تضارب الأفكار ودوافع الغريزة وفعالية الأعصاب. والهدوء هذا من شأنه مساعدة العقل على تأدية واجبه كوسيلة للنظر في الأمور، إلا أن ذلك شيء والتوصّل إلى الحقيقة شيء آخر. إن ما ينتج عن التركيز والسيطرة على الغرائز من هدوء وسلام داخلي لا يكفي بحد ذاته للتوصل إلى الحقيقة، بل يجب أن يقوم العقل بمهمة أخرى هي الاستقراء أو الاستنتاج أو التجربة.. فتلك هي أدواته ووسائله لتحقيق ذلك.

والمعرفة لا تقتصر على الاتجاه الذي هو بمثابة الروح لها، في حين أن جسمها يتكوّن عن طريق العقل. فمثلاً إذا ما شعر الإنسان أن وضعاً من أوضاع المجتمع قد أصبح متخلّفاً ويحتاج إلى تبديل

للأحسن، فإن ذلك يكون بدايةً لا تكتمل إلاّ إذا قام العقل من جانبه بصياغة معالم ذلك الوضع الأحسن، أي صياغة نظامٍ له.

أقول ذلك للتنبيه إلى أن القول بدور الإحساس يجب ألاّ ينصرف إلى الآراء التي تجعل من الإحساس كل شيء وبالتالي تُلغي دور العقل. إن العقل عندما يؤدّي دوره يقوم بكامل عملية النظر في الأمور. ومادة البحث هنا هي الحوادث والمظاهر المستقاة من التاريخ والطبيعة. فالمادة المستقاة من ذلك يستخدمها العقل تلخيصاً ودراسةً ومنها يستدلّ على ما يقف وراءها وما تدلّ عليه. وبذلك تكون إقامة الدليل واللجوء إلى البرهان وسيلة العقل للتوصل إلى النتيجة: إنها ملاحظة الظواهر وتنسيقها واستنباط مغزاها التي يقوم بها العقل بما يؤدي إلى المعرفة المفيدة، وليست تلك الصلة الباطنية التي يُقال إنها تحدث بين الفرد والحقيقة عن طريق ما يُدعى بالتجلّي أو الكشف.

ـ ٦ ـ

عندما ننظر إلى التاريخ بعد مدة طويلة من الزمن ونفحص محتوياته ونتتبع خطوط اتجاهاته يتبيّن لنا أن فيه إرادةً تخترق حوادثه وتجذبها نحو غاية. وتتجسد تلك الإرادة ليس بشكل قوة غامضة كما تتصوّرها بعض المذاهب، بل من خلال إرادة الإنسان. فإرادة التاريخ هي إرادة الإنسان المشدودة إلى هدف سام والمنتظمة في حبل متصل يقود النشاط الإنساني في اتجاه معيّن. لذلك، فمن بين جميع طُرُق المعرفة يحتلّ التاريخ منزلة خاصة في عملية التعرّف على الحقيقة لأنه

سجل ما حدث.

ولكن لكي تكون دراسة التاريخ مفيدةً في مجال التوصّل إلى الحقيقة، لا بد من ملاحظة بعض الأمور المنهجية. فالتاريخ كمٌّ كبير من الحوادث المتباينة من حيث الأهمية ومن حيث التناسق والانسجام، إذ فيها من التباين والتعارض وعدم التناسق وأحياناً التناقض ما يجعلها غير مفيدة إذا ما أُخذت على ما هي عليه كمادة خام. لذلك، ينبغي أن تكون دراسة التاريخ حسب منهج يُميِّز بين المهمّ والعارض، بين الصحيح والمنسوب والمشكوك فيه، بذلك وبذلك فقط يُمكن تحويل الحوادث إلى اتجاهات عامة. ولعلّ أكبر صعوبة تجابه دراسة التاريخ هي تكييف العقل البشري الموجود الآن والفعّال في ظروف الحاضر لدراسة عقل بشري عمل في الماضي بظروف ذلك الماضي وفهمه. إن لكل عصر قوالب تفكير خاصّة به، ولكل مرحلة وضعاً مؤثّراً في فهم الأمور وتفسير الظواهر. وتلك صعوبة ملموسة. فكثيراً ما نقف على أحداث صدرت في إطار الخير في وقت سابق، إلاّ أن النظر إليها في إطار الحاضر لا يصنّفها كذلك. والسبب في هذا التباين يعود إلى تباين القوالب والمناخ الثقافي السائد وتباين الصيغ المعبِّرة عن قيم الخير أو قيم الشرّ من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى. وذلك هو أثر التطوّر. فالتطوّر يعني أساساً التباين في الشكل والصيغة مقابل الثبات في الإرادة وأزلية المثل الأعلى. إن المثل الأعلى أزلي، أما صيغ التعبير عنه فتتباين من وقت لآخر تبعاً للتطوّر. إذن، التاريخ يحتوي على عنصر الثبات وعنصر التغيير في الوقت نفسه.

إن الإرادة الكلّية التي ينتظم كل شيء في إطارها تحتوي على

عنصر الثبات المتمثّل في المُثُل العليا. وفي ذلك الثبات ضمانة للحق أن يتحقق وللعدالة أن تسود، حيث تصبح قضية الحق والعدل والحرية قضية أزلية فوق الجميع وتُشكّل مقياساً ثابتاً لقياس المواقف، وتمنع بالتالي دوافع الشرّ من أن تسود وان تتحكّم في موازين الحياة والمجتمع. وذلك هو عنصر الثبات والضمان والأزلية. إلاّ أن إرادة الخير هذه إنما هي روح تحتاج من أجل أن تتحقّق إلى شكل تتجسَّد فيه. والشكل هذا هو من وظيفة العقل البشري المتفاعل مع الروح المتحفز بدافع الخير والفضيلة والتقدّم. والعقل البشري ينظر في الموجود في وقته، ينظر في أحوال الناس والمجتمع والطبيعة فيبتدع ويقارن ويختار ويقوّم ويعدّل إلى أن يتوصل إلى الشكل الأفضل للتعبير عن تلك الروح. وبمرور الزمن تتغيّر أحوال الناس والمجتمع والطبيعة. لذلك عندما يقوم العقل بتأدية مهمته في خلق صيغة جديدة للتقدّم ولإيجاد شكل جديد تتجسَّد فيه الروح، لا بد له أن يبتدع صيغاً مغايرة للصيغ الموجودة.. وذلك هو معنى التطوّر. وهكذا، عندما نحلّل التاريخ إلى عناصره الأساسية نجده ينطوي على عامل الثبات وعامل التغيّر في الوقت نفسه.

التاريخ، إذن، ليس مجموعة أفكار الإنسان المنبعثة من رغباته والمنبثقة من عقله بدوافع الغرائز والتأمّلات الشخصية والهواجس الذاتية. والتاريخ بالتالي لا يعتمد على إرادة الأفراد التي تحرّكها تصوّراتهم الشخصية عمّا هو صحيح وغير صحيح ومقاييسهم للخير والشرّ كما تقول الفلسفة الذرائعية وتنتهي إليه من انعدام المقياس الأعلى والحقيقة الموضوعية التي تُقاس بواسطتها المواقف، والتي تؤدي في

النهاية إلى إطلاق يد القويّ في أحوال الضعيف وتبيح له أن يعمل ما يتصوّره صحيحاً بدون مقياس موضوعي للحكم والتمييز. ومن ناحية أخرى، التاريخ ليس إرادة كلّية شاملة تقرّر كل شيء، أي الاتجاه العام والشكل الذي تتجسد فيه، فيكون التاريخ بذلك سلسلةً من الحوادث المقرّرة مسبقاً، المرسومة بأدقّ أجزائها، وما الإنسان إلاّ شكلاً تحرّكه تلك الإرادة من دون أي دور للعقل، وبذلك يتحوّل الإنسان إلى شيء من جملة الأشياء، وكل ما يصدر منه مقرّر سلفاً ومرسوم بدقّة. وفي هذه الحال، لا تكون الإرادة الكلّية تقرّر الروح فقط بل والشكل أيضاً، أي النظام، وبذلك ينعدم التطوّر، إذ إن الصورة بكامل تفاصيلها مقرّرة ومرسومة سلفاً. فالخير يحصل كلما اقترب المجتمع منها ويحصل الشرّ بمقدار ابتعاده عنها. في إطار هذا التصوّر للتاريخ، لا يوجد تطوّر بل مجرد اقتراب أو ابتعاد عن حالة من حالات العلاقة بين الروح والشكل. الروح متجسّدة بشكل محدَّد وتكون بذلك الحالة المثالية للعلاقة، وهي الصورة المرسومة، وعلى أساسها تُقاس جميع الأمور، فلا تطور ولا دور للعقل، وواجب الإنسان هو الرجوع إلى تلك الصورة كلما انحرف التاريخ عنها.. وذلك هو أساس التفكير السلفي. في الحالة الأولى، تبرير لميول الغريزة ومعها إرادة الشرّ، وفي الحالة الثانية نظرة الجمود وتوقف المجتمع وإلغاء التطوّر. التاريخ ليس هذا ولا ذاك. ولو رجعنا إليه ونظرنا فيه بموقف الحياد والصدق لوجدناه ينطوي على عنصرَيْ الثبات والحركة في الوقت نفسه كما مرّ توضيحه.

سمعت مرة من يقول إن الضمير نابعٌ من العقل، أو هو العقل باسم آخر. وذلك بنظري خطأ. فالضمير شعورٌ ينبع من ذات الإنسان،

والإنسان يحّس بذاته عندما يتوجّه إلى داخل نفسه فيشعر أنه موجود بكيان مستقل وإرادة مستقلة قائمين بذاتهما. وشعورٌ كهذا لا يتأتى عن طريق العقل الذي تنحصر فعاليته في عملية التفكير. أما الإحساس فهو شيء آخر. إن العقل، أي التفكير، يُمكن أن يعمل في اتجاه الشرّ كما أوضحنا. إذن ما الذي يجعله يعمل في اتجاه الخير؟ إنه شيء آخر؛ إنه إحساس داخلي في اتجاه معيّن نسميه الضمير. الضمير هو الهاتف الداخلي الذي يدعو إلى عمل هذا الشيء وليس ذاك بسبب صفة معيّنة لهذا الشيء (الخير) مناقضة لصفة ذاك (الشرّ). إن هذا الهاتف الداخلي إحساسٌ بالوجود القائم بذاته. وعلى ذلك، فالضمير ليس جزءاً من جسم الإنسان بينما العقل جزء من جسم الإنسان. الضمير ينتج عنه الإحساس والعقل ينتج عنه التفكير، والإحساس شيء مختلف عن التفكير. لذلك فعلم النفس يجب ألاّ يقتصر على دراسة ما يتعلّق بالدماغ وباقي جسم الإنسان، لأن النفس ليست ذلك بل هي شيء أوسع. إن الإحساس بالذات وإنْ كان يمرّ من خلال الدماغ إلاّ انه ليس عملية تفكير. فالإحساس بالذات أمرٌ يرقى عن التفكير كما يرقى التفكير عن الجسم.

إن عملية الاستدلال على الحقيقة تُدعى بالمعرفة. والمعرفة تتناول جوهر الأشياء وليس مظهرها فقط. إن الحقيقة كما قُلنا لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق ما تتمثّل به، أي ما تُعبِّر به عن نفسها، أي دراسة الظواهر التي تتمثّل بها. أما مجال تلك الظواهر فهو التاريخ. والتاريخ لهذا الغرض هو التاريخ العامّ الذي يشمل تاريخ الإنسان وباقي الكائنات الحيّة وتاريخ الطبيعة، أي ان يشمل جميع الحوادث وليس

الحوادث المتعلّقة بالإنسان وحده. لذلك كان صحيحاً وجود تاريخ طبيعي للنبات والحيوان وتاريخ لتطوّر علم الأرض وتاريخ لتطوّر الكون. إن جميع ما حدث للطبيعة والإنسان والحيوان والنبات يقع ضمن ما يشمله التاريخ. والتاريخ يمتد من أبعد ما يستطيع الإنسان معرفته مما هو مدون أو غير مدون حتى أقصر نقطة زمنية في الحاضر. والنقطة الزمنية هي النقطة المتناهية الصغر، وهي تصوّرٌ ذهني يشبه النقطة الهندسية، والنقطة هذه هي التي تفصل الماضي عن المستقبل. فكل ما قبلها يقع في عداد الماضي، وكل ما بعدها يقع في عداد المستقبل. لذلك لا يوجد هناك حاضر. فالحاضر إذا كان قد وقع قبل هذه النقطة فهو جزء من الماضي وإذا كان يقع بعدها فهو جزء من المستقبل. إن كلمة الحاضر تعبير اصطلاحي يقصد منه تبسيط الأمور ولا سبيل إلى تحديد حدوده بدقة.

إن التاريخَ بمعناه الشامل الواسع الممتد إلى النقطة الفاصلة بين الماضي والمستقبل يُوفِّر المادة الأوّلية للاستدلال على الحقيقة. فمنه نستطيع معرفة اتجاه التطوّر وملاحظة فعل إرادة الخير المتمثّلة في الحركة والتطوّر الذي شهده الجماد والنبات والحيوان والإنسان. إنه وعاء كل ما حدث في الماضي، وما حدث في الماضي عندما يتناوله العقل بالدراسة والتنسيق والتحليل والجمع، مستخدماً الاستقراء والاستنتاج والتجريب، يدلّ على النظام وليس على الفوضى، وعلى اتجاه محدّد للخير وليس على انعدام أي اتجاه. وهكذا يكون العقل أداة المعرفة. فعن طريقه نستطيع دراسة الظواهر التي تتمثل بها الحقيقة على امتداد الماضي بمعناه الواسع. إنها عملية ملاحظة الظواهر وجمعها

ودراستها وإخضاعها للتحليل واستنباط الأدلّة على وجود تلك القوة الكلّية أو النظام الشامل للوجود.

ونظراً إلى أن العقل ينظر فيما تتمثّل به الحقيقة وليس الحقيقة بذاتها، فإن ما يتوصل إليه عن طريق الاستقراء والاستنتاج والتجريب ليس إلاّ مقاربة للحقيقة واقتراباً منها، لأنه جزء محدود من كلّ، يحاول معرفة الكلّ عن طريق ما يدلّ عليه. ومهما كان مدى الاقتراب، فإنه العقل وليس غيره ما يقوم بدور تكوين المعرفة. فالمعرفة لا تحصل من خلال عملية سرّية بين الفرد والوجود، أو وفق ذلك الادّعاء المبهم عن حصول تجلّي الحقيقة أو الكشف عن سرّ الوجود الذي تقول به بعض المذاهب الفكرية ومنها الصوفية.

ـ ٧ ـ

والآن يصل بنا البحث إلى موضوع المعرفة.

إن موضوع المعرفة هو التطوّر، أي الارتقاء من وضع إلى وضع أفضل منه. والقوة المحرّكة للارتقاء، كما أوضحنا سابقاً، هي تحرّك الضمير، ويتمّ ذلك عن طريق الإنسان ومن خلال الإحساس وليس العقل. والإحساس هو الشعور بموقف أخلاقي إزاء هذا الأمر أو ذاك، أي شعور الخطأ أو الصواب، شعور العدل أو الظلم، شعور الحق أو الباطل، شعور الجمال أو القبح.. إلخ، مما ندعوه بالمُثُل العليا. إذن فبمجرد ما يحصل الشعور بالموقف إزاء أمر ما تكون عملية تكوين المعرفة قد بدأت. إن الشعور يتعلّق بأعماق النفس، وأعماق النفس

ليس لها مكان فيزياوي في الجسم كما هي الحال في العقل، الذي له مثل ذلك المكان وهو الدماغ. إن الإحساس بموقف أخلاقي من أمر من الأمور منبعه الضمير، والضمير غير العقل وإنْ كانت الصلة بينهما قوية تتسم بالتفاعل. وبعد أن تكون البداية لتكوين المعرفة قد حصلت يقوم العقل بدوره ويأخذ مداه في النظر والتعريف ثم التحليل والاستنتاج وصياغة الموقف.

إذن، الإحساس يوفّر بداية لتكوين المعرفة وليس كل المعرفة. فعن طريق الإحساس يعرف الإنسان اتجاه الأمور وليس الأمور بكل ما تنطوي عليه. إنه العقل الذي يصوغ الشكل الملائم لذلك الاتجاه، لذلك يؤدي العقل دوراً مهمّاً في تكوين المعرفة.

إن الوجود الذي نلاحظه من خلال دراسة التاريخ بمعناه الواسع فيه مادة تتمثّل في صور متعدّدة من جماد ونبات وحيوان وإنسان. ويُلاحظ أن هذه المراحل لتمثّل المادة الأساسية متَّصلة وتتسم بالتطوّر والارتقاء. فاتصال حلقة الإنسان بالحيوان كانت موضع دراسات علم الأجناس من قبل داروين وعلماء آخرين، كما يُلاحظ اتصال حلقة الحيوان بالنبات. فبعض الكائنات البحرية فيها صفات الحيوان وصفات النبات في الوقت نفسه، كما أن معالم الحياة في بعض أصناف النباتات تتضاءل إلى حد بعيد، الأمر الذي يقرّبها من الجماد.

كما أن صفات الحركة والتناقض موجودة في جميع هذه الحلقات، فهي في تغيّر مستمر سلباً وإيجاباً إلا إنها في الحصيلة النهائية ذات خط صاعد في سلّم الرقي والتطوّر بدءاً بالجماد وانتهاءً بالإنسان. كل ذلك موجود ويقدّمه التاريخ وعاءً لظواهر العقل البشري للملاحظة

والدراسة وتكوين المعرفة. وإذا كان لكل حدث سبب، فلا بد أن يكون لكل ذلك مسبّب. إلا أن أوضح ما تتمثّل به الحقيقة هو الإنسان الذي يُشكّل أرقى حلقات التطوّر. والسبب هو انه كائن حيّ فيه غريزة كما في سائر الكائنات الحية، إلاّ أن فيه قبساً من الحقيقة يتمثّل في الضمير كما أن فيه مَلَكة العقل. لذلك. فإن الحقيقة تتمثّل فيه بأجلى صورها. فاتجاه الخير يتضح بأقوى ما يتضح به من خلال نشاط الإنسان عبر التاريخ. فهو الذي أقام المجتمع وأسَّس الدولة وأبدع الحضارة ونشر الدين ونقل الحياة من وضعها البدائي الأول إلى ما هي عليه الآن. لذلك تتضح فيه إرادة الخير بأقوى صورها. إن التطوّر العام وبمفهومه الواسع هو الصورة التي تدلّ على الحقيقة. وقد قام الإنسان بالدور الأهمّ في ذلك التطوّر. إنه بهذا المعنى محور الكون وأقوى جزء يتحرك فيه بفعل ما يتميّز به عن كل شيء آخر، ألا وهو وجود الضمير المتحد مع العقل. إن قوة الضمير المتحد مع العقل هي القوة الفاعلة في التطوّر. فهي المنظِّم له والمسيطر على الغريزة وبواسطتها يُحفظ كل شيء في حدوده ويُصاغ نظامُ المجتمع.

ـ ٨ ـ

ما هي مواضيع التفكير؟

مهما تعدّدت مواضيع التفكير، فهي في النهاية تتوزع على قطبين رئيسين هما: ميول الخير (الجانب المثالي)، وميول الشرّ (الجانب الغريزي).

إن العقل ينظر في كل شيء ويتناول جميع الأمور التي تمرّ من خلاله أو تُعرض عليه. والذي يهمّنا في هذا الصدد هو أن نتناول مسألة التوضيح الذي يقوم به العقل في مجالين اثنين: مجال الخير ومجال الشرّ. إنني أفرّق بين الضمير والعقل، فالضمير هو الإحساس بالميل نحو الخير والتعلّق بالمُثُل العليا والسعي إلى إحقاق الحق ونصرة العدل وتحقيق الأفضل والأرقى للإنسان. إن هذا الميل المثالي عند الإنسان لا يصدر عن العقل بل يشعّ من ذلك النظام الكلّي وتلك الإرادة الكلّية للكون. وربُّ مناقش يقول إنك قُلت إن العقل لا يقبل غير النتائج التي يتوصل إليها عن طريق أدواته هو. فما الاستنتاج والدليل على وجود هذه القوة الكلّية المثالية في الكون؟ الدليل هو ما تتمثّل فيه هذه القوة. ألمْ أقل من قبل إن في النبات والحيوان والإنسان غريزة للبقاء والاستمرار؟ وهذ الميل الواضح للبقاء والاستمرار ألا يدلّ على اتجاه محدد بغاية مثالية؟ إنه ميل ليس للفناء بل للبقاء والاستمرار والحياة. ثم ألا ترى كيف أن الإنسان منذ أن وُجد أول مرة على هذا الكوكب يُناضل ويعمل من أجل الارتقاء والتقدّم ويثور ويعمل ويكدح من أجل الحق والعدل.. وهو في كل ذلك قد حقّق تقدّماً وارتقاء نقلاه من الحالة البدائية إلى الحالة الحاضرة؟ إن تطرف الغرائز وخروجها عن المقبول المتمثّل بالأنانية والظلم والاستغلال والقسوة يُقابله نضال مستمر قام به الضمير الإنساني المتفاعل مع العقل من خلال الأديان والثورات وحركات الإصلاح والتقدّم العلمي، ولا يزال هذا الصراع مستمراً. إن قوة الطبيعة ووحشية بعض الحيوانات وإضرار بعض النباتات هي أيضاً في تناقص بفعل الجهود الخيّرة التي يبذلها الإنسان. أليس كل ذلك

دليلاً كافياً على إرادة الخير والميل المثالي المتجسّد في الكون ومكوّناته؟

وهذا الكون الذي نعيش فيه كيف يُمكن تعليل النظام الدقيق الذي يسير عليه وقد بدأنا نكتشف ولو جزءاً صغيراً من محتوياته؟ إن أقرب شيء إلى الإنسان هو جسمه، فكيف يُمكن أن نعلّل وجود هذا التركيب الدقيق المثير للدهشة في عمله وتأدية واجباته وتناسقه وترابط أجزائه؟ إذا كان القول بأن لكل فعل مسبّباً يُشكّل قانوناً منطقياً، فلا مناص عندئذ من القول إن كل الذي نشاهده في الكون لا بد أن يكون له مسبّب، وأنه من قبيل العبث اعتبار أن ذلك كان بدون مسبّب.

إن وظيفة العقل هي التنوير والشرح وكل ما يؤدي إلى توضيح الأمور خيراً أو شرّاً تسهيلاً لاتخاذ القرار. إن ميول الخير عند الإنسان متفاوتة، فهي قوية عند بعضهم وضعيفة عند البعض الآخر. كما أن ميول الشرّ متفاوتة، فهي قوية عند بعضهم وضعيفة عند الآخرين. وكما سبق أن ذكرنا، فإن الأنبياء أفرادٌ بلغت قوة الخير عندهم حداً عالياً جداً بينما ضعُفت عندهم ميول الشرّ إلى أقصى الحدود. أما المجرمون وأشرار التاريخ فهم على العكس منهم، ويتوزّع بقية الناس بين هذين الطرفين. لذلك كان كل إنسان حالة قائمة بذاتها من حيث نوعية العلاقة بين ضميره وغرائزه، بين ميوله الخيّرة وميوله الأنانية الشريرة. وفي داخل كل إنسان هناك صراعٌ دائم بين هاتين القوتين.

إن الله هو التعبير الإسلامي عن قوة الخير الكلّية، وفي الإنسان قبسٌ من نور الله هو ضميره. أما الشيطان فهو الصورة المادية لأحاسيس الشرّ والأنانية الموجودة في الإنسان والنابعة من غرائزه، والصراع أبدي.

بين الضمير ووساوس الشيطان. والعقل كأداة للتنوير والنظر في الأمور قد يساعد الضمير عندما يوضّح للنفس مزايا الخير وحسنات المُثُل العليا، وبذلك يكون عامل هداية وإرشاد يقوّي الضمير ويشدّ أزره، لذلك كان أقوى الإيمان هو الإيمان المدعوم بقوة العقل. وتتضح قوة العقل هذه عند الأنبياء والمصلحين وجميع الذين قادوا عملية التقدّم البشري. إلاّ أن العقل قد يُوضع في خدمة الغريزة أيضاً عندما تكون قوة الغريزة هي السائدة. وهكذا وجدنا عتاة المجرمين ورؤوس الشرّ في التاريخ يستخدمون العقل لخدمة الشرّ. إذن فالعقل قد يُساعد اتجاه الخير كما قد يُساعد اتجاه الشرّ بناءً على القوة المسيطرة التي تستخدمه، وذلك لأن العقل مَلَكَة فنّية وجزء من الجسم وليس صفة أخلاقية. إن الميل الأخلاقي في الإنسان ليس مصدره العقل بل مصدره القوة الكلّية في الكون المتمثّلة في الضمير.

هذه الأطراف الثلاثة: الضمير والغريزة والعقل، تتفاعل فيما بينها. فالضمير في صراع مستمر مع الغريزة، والعقل يتفاعل مع الاثنين، ومن هذا الصراع وهذا التفاعل تنتج حالات لا حصر لها من الأحكام والمواقف من خلال عملية معقّدة مستمرة في النفس البشرية. إن ميول الخير ليست ميولاً ساكنة بل متحرّكة بمعنى أنها قابلة للضعف والقوة ومعرّضة للتنبيه والتحفيز، كما أنها معرّضة للخمول والركود. وغرائز الإنسان وأنانيته وميول الشر فيه هي أيضاً متحرّكة وقابلة للتغيير قوةً وضعفاً. والعقل هو الآخر لا يتخذ وضعاً ثابتاً بل إنه قابل للنمو والتطوير، فهو ينمو مع نمو الجسم ويتطوّر من خلال التعليم، وينطوي على درجة معيّنة من الذكاء و يكتسب مهارة من خلال التجربة. وبعبارة

أخرى، إنه مَلَكَة متطوِّرة وقابلة للنمو وزيادة الفعالية. وهذه المَلَكَة الفنّية والقدرة على الإيضاح قد يستعين بها الضمير وقد تستعين بها الغرائز، وهي في كلتا الحالتين تعمل في نطاق فنّي. فهي إنْ ساعدت الضمير، فعن طريق التنوير والتوضيح. كما أن الغريزة وميول الشر يُمكن أن تستفيد من العقل كوسيلة معرفة فنّية ليس إلاّ.

- ٩ -

قُلنا إن الصراع بين الخير والشرّ مستمر، والعقل الإنساني أداة يُمكن أن تُستخدم من قِبَل أيٍ من القوتين المتصارعتين. ولكن لماذا يكون الصراع مستمراً؟ الصراع مستمر لسبب جوهري هو أن الحقيقة الكلّية التي تتجسّد في الكون لا تتكشف مرّة واحدة بل بصورة تدريجية. فكيف يتمّ ذلك؟

إن الحقيقة الكلّية التي تتجسّد في الكون ومحتوياته ليس بالإمكان التوصّل إليها مرّة واحدة. في الإنسان جزء أو قبس من تلك الحقيقة هو الضمير والميل نحو المُثُل العليا. والعقل كمَلَكَة فنّية هي الأداة المُستخدَمة لتكوين المزيد من المعرفة والاقتراب من الحقيقة. وبلغة عملية، يقوم الإنسان بدافع من ميله إلى التقدّم باستخدام عقله من أجل التوصّل إلى معرفة أكبر بما يؤدي إلى التقدّم ويخلق مزيداً من الرُقي لحل المشاكل ولإزالة المعوّقات من طريق ما هو أفضل. إنه نضالٌ مستمرٌ يتفاعل من خلاله العقل مع الضمير من أجل المزيد من التقدم، تارةً عن طريق الهدم أي إزالة آثار الغريزة وما يبنيه الشرّ، وتارةً عن

طريق البناء أي تشييد كل ما يؤدي إلى خير الإنسان وتحقيق سعادته.

إن أحاسيس الخير وميول الفضيلة وحافز المُثُل العُليا أمورٌ موجودة في الإنسان، وهي موجودة في الجزء لأن الإنسان جزء من الوجود وليس الوجود كله. كما أن العقل البشري مَلَكَة محدودة للسبب نفسه، أي لكون الإنسان محدوداً. وصفات المحدودية هذه تجعل ما بمقدور الجزء من الكون ـ الإنسان ـ أن يقوم به في مجال استيعاب الحقيقة والتوصّل إلى كامل الحقيقة محدوداً في كل نقطة زمنية. وعليه فالنتيجة المنطقية لذلك هي أن تكون عملية الوصول إلى الحقيقة عملية متدرّجة ومستمرة. وبالتالي، بالرغم من أن الحقيقة مطلقة، فإن التوصّل إليها لا يأتي إلا بالتدريج.. ومن هنا كان الصراع من أجل الحق والعدل والتقدم مستمراً.

إن السمة الأساسية للمجتمع هي التناقض الذي من خلاله تتمّ عملية التقدّم. فالصراع موجود اليوم بهذه الصيغة وغداً بصيغة أخرى. وكلما انتهى صراع تولّد صراع آخر.. وهكذا، إن إرادة الخير والقوة الكلّية المتجسّدة في الإنسان وما يحيط به هما في عملية تكشّف مستمر من خلال الصراع والتقابل. ومن خلال هذه العملية وفي خضمّها، يؤدي الإنسان دوراً مهمّاً. فإرادة الخير تتجسَّد فيه بأقوى صورها: الضمير. كما أن الإنسان يملك مَلَكَة العقل التي تعمل على تقوية عوامل الصراع ومساعدة ما يستطيع التغلّب في النهاية ألا وهو قوة الخير. وبعبارة أخرى، إن عناصر عملية الصراع موجودة في الكون، إلا أنها تتجلى كأوضح ما يكون التجلّي في الصراع الذي يخوضه الإنسان للأسباب المذكورة. وبهذا المعنى، يُمكن تكرار القول إن الإنسان هو

مركز الكون إذ من خلاله تحدث أوضح عملية صراع وأوضح حالة تناقض بين الخير والشرّ، بين الضمير والغريزة.

إن المعنى الحقيقي للصراع يجب ألا يُؤخذ بمنظار الانطباع الشائع المتسم بالسلبية. فالصراع يعني في الحقيقة التفاعل والاندماج والتأثير.. وذلك عمل إيجابي وإن كان يتضمن نشاطاً سلبياً يتمثّل في إزالة شيء موجود. إن عملية إزالة الشيء الموجود لا تتمّ إلا لضرورة الشيء الجديد الذي يحلّ محله، لذلك فهي من حيث النتيجة عمل إيجابي.

ويمكن أن تتجه عملية الصراع هذه إلى ما هو خارج الإنسان، وما هو خارج الإنسان يُمكن أن يكون المجتمع ويُمكن أن يكون الطبيعة المادية المحيطة بالمجتمع. وقد اصطُلِحَ على تسمية المعارف المتعلّقة بعملية تغيير المجتمع بالعلوم الاجتماعية، وتسمية المعارف المتعلّقة بعملية تغيير الطبيعة بالعلوم الطبيعية. وفي كلتا الحالتين تنبع قوة التغيير الدافعة للصراع من المصدر نفسه: ضمير الإنسان وميله إلى التقدم المتحد مع العقل كأداة للمعرفة. وهكذا تتضافر النيّة مع العلم والإرادة مع العقل، فتتكون قوة التقدّم التي تندفع لتفعل في الموضوع الذي يُمكن أن يكون للمجتمع أي نظامه وأوضاعه، أو للطبيعة أي مواردها وقواها الفيزياوية.

إن القوة المتكوّنة من تفاعل الضمير مع العقل تقف في طريقها قوةٌ أخرى متكوّنة من تفاعل الغريزة الخارجة عن الحدود مع العقل أيضاً، مكوّنة قوة المقاومة، فتتصارع القوتان على مسرح التاريخ إلى أن تتغلّب في النهاية قوة الخير ويحصل التقدّم.

الإنسان هو الجزء الأكثر تعقيداً في الكون. فالضمير أو الميل إلى الخير مستمدٌ من الحقيقة الكلّية والمثل الأعلى الذي يتجسّد في كل شيء. ولكن هذا القبس لا يوجد بصورة واحدة نمطية في جميع الناس. والغريزة التي هي قوة الدفاع عن النفس والمحرّك للتركيب الفيزياوي للإنسان لا توجد بنمط واحد في جميع الأفراد. كما أن ملكة العقل ليست واحدة عند الجميع. إن العلاقة بين هذه العوامل الثلاثة لا تخضع لقاعدة نمطية واحدة، بل هي في تفاعل وعلاقة متغيّرة دوماً تنتج عنها في كل حالة نتيجة معيّنة لا تشبه النتيجة الحاصلة من شكل آخر من أشكال التفاعل.. وتلك هي حال المجتمع. أما الطبيعة فقوانينها نمطية قابلة للتكرار، وتفاعلاتها أقرب إلى الثبات منها إلى التغيير. لذلك، فإن اكتشاف قوانين عملها أسهل من اكتشاف قوانين العلاقات الاجتماعية، ولعلّ ذلك ما يفسر كون العلوم الاجتماعية أكثر تعقيداً وأصعب من العلوم الطبيعية. إن المعرفة المتراكمة حتى الآن عن الإنسان هي من دون شك أقلّ من المعرفة المتراكمة عن الطبيعة.

ـ ١٠ ـ

يتضح مما تقدّم أن الحقيقة ليست ما هو موجود في أذهاننا نحن بل منفصلة عنا وإنْ كان قبسٌ منها موجوداً في كل واحد منا متمثّلاً بالضمير.

إن الحقيقة الكلّية هي موضوع المعرفة الذي يسعى العقل البشري للتوصل إليها بالتدريج من خلال التقدّم في المجتمع وفي العلاقة مع

الطبيعة. إن العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية إن هي إلاّ معرفة يحاول الإنسان التوصل إليها من خلال تفاعل ضميره الحاثّ على التقدّم مع عقله كأداة فنّية لخدمة الضمير. هناك إذن ما هو موضوعي. والمُثُل العليا ليست كما تقول الذرائعية مجرد تصوّراتنا ورغباتنا نحن لما هو حق وعدل، بل الحق والعدل هما الحقيقة المنبثّة في كل شيء بما في ذلك الإنسان. إن مقياس الحق والعدل مقياس لا يخضع للاجتهاد. فما هو حق بقي حقاً خلال التاريخ، وما هو باطل بقي باطلاً خلال التاريخ بالمقياس الموضوعي المنفصل عن رغبة كل واحد منا، وهو المرجع النهائي والحَكَم الفصل في الأمور. ما هو حق ليس أمراً يستطيع العقل أو تستطيع الغريزة أن تقرّره وبالتالي يكون مختلفاً من حالة لحالة ومن إنسان لإنسان.

ولكن ماذا يعني ذلك بالنسبة لقضية الحرية؟ إن الحرية تتعلّق بقضية صيغة التقدّم الاجتماعي وشكل النظام الذي يختاره الإنسان في كل حقبة من أحقاب الصراع بين قوى الخير وقوى الشرّ. . وهنا يكمن معنى التطور. فالمُثُل العليا والحقيقة الكلّية لا تتكشف مرّة واحدة بل بالتدرج كما أوضحنا، لأن الإنسان جزء محدود والمحدود لا يستطيع الإحاطة بالكل مرّة واحدة. إن العقل الذي هو ملكة التفكير يخلق الشكل الملائم لمرحلة من مراحل التقدّم، ويعني ذلك أنه يبتدع الصيغ أي الأنظمة والقواعد التي تنتظم بموجبها العلاقة بين الإنسان والمجتمع، وبين الإنسان والطبيعة. بعبارة أخرى، إن العقل يُوجِد الأنظمة ويسنّ القوانين ويخلق الصيغ التي تتطلبها المرحلة ويقرّر لكل حالة ما يُناسبها ولكل مرحلة ما ينسجم معها من أشكال التقدّم. أما

الضمير فهو الدافع والمحفز والباعث، ولكنه لا يقوم مقام العقل في تكوين الصيغة الملائمة للمرحلة. ومن ذلك يتّضح وجود حتمية في عملية تقدم الإنسان، بمعنى أن المثل الأعلى لا بد أن ينتصر في النهاية أي أن التقدم حتمي ونتيجة الصراع معروفة، إلا أن الشكل الملائم بكل ما ينطوي عليه مما يقع في عداد النظام الاجتماعي غير حتمي بل هو من صياغة العقل البشري. . وهنا تتجلى الحرية بمعنى حرية العقل في اختيار النظام.

إن الخطأ الذي تقع فيه الأفكار الجبرية بشتى مدارسها يكمن في عدم التفريق بين الضمير والعقل. فهي تقول بوجود إرادة واحدة تقرّر ما يحدث وشكل ما يحدث، أي أنها تفرض التغيير والصيغة التي يحدث فيها. بنظرها هناك إرادة واحدة مسيطرة ترسم كل شيء وتقرّر كل صغيرة وكبيرة في المجال الاجتماعي أو الطبيعي. وهي بذلك تلغي دور العقل وتجعل الإنسان مجرد خليّة في الكون تسيّرها تلك القوة المهيمنة كما تسيّر غيرها. إن هذه النظرة متناقضة كما هو واضح مع القول بحرّية الاختيار وقدرة الإنسان على التحكّم بشكل التقدم الاجتماعي إذ ليس للعقل بموجبها دور فاعل في التاريخ. إن التقدّم وصيغة التقدّم (النظام الاجتماعي) حتمية مفروضة.

ـ ١١ ـ

ولكن ما الحرّية؟

الحرّية قانونياً حقٌّ بمعنى الفكر السياسي المتمحور حول القول

بفكرة العقد الاجتماعي. وقبل ذلك أكّد الفكر الإسلامي على ذلك من خلال القول المأثور «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، بمعنى أن الإنسان وُلد هكذا حراً، وبالتالي فكل شيء غير ذلك إنما هو طارىء مصطنع ومن ثم غير جائز.

ولكن لا بد لذلك الاعتبار من حيثيات. ويُمكن التعرّف على تلك الحيثيات عبر إيضاح العلاقة بين العقل والضمير من خلال عملية التطوّر الاجتماعي. قُلنا إن العقل يقوم بدور التنوير والإيضاح. والتنوير يعني إضاءة الطريق وإلقاء الضوء الكاشف على الأمور التي يتناولها الضمير والداخلة في عملية الصراع من اجل التقدّم. ويتعلّق الأمر في هذا الصدد بالجواب عن سؤال مهمّ: كيف يتنبه الضمير؟ إن قوة الخير موجودة في كل إنسان، فكيف تستيقظ وكيف تعمل؟ إن الإنسان يستطيع بتفكيره البسيط أو بمعلوماته العامّة أن يرى الحق من الباطل وأن يميّز ما هو ظلم. إن بداية رؤية الحقيقة ممكنة عند كل إنسان في إدراكه لما حوله. ويكون ذلك بشكل إحساس داخلي، ولكن ذلك الإحساس سرعان ما يستجيب إليه ويتفاعل معه العقل الذي يجلب المعلومات ويُحلّل الحوادث ويستذكر التاريخ ويختار الوسائل وينظّم الصراع ويدير المعركة ضد القوة المضادة ويصوغ البدائل ويقترح شكل التغيير. إنه وهو يقوم بهذا الدور لا يقوم به بمعزل عن الضمير بل بالاتصال به ويحدث ذلك التأثير المتبادل. فمجمل ما يقوم به العقل من شأنه إلقاء المزيد من الضوء على الوضع المُراد تغييره، فيضع أمام الضمير معلومات جديدة عن الواقع المُراد تغييره من فساد وظلم وتخلّف، وهو بذلك يقوم بدور خلق المزيد من التحفيز والتنبيه في الضمير. إذن

فضمير الإنسان ـ أي نزوعه إلى التقدم والخير الموجود ابتداءً ـ بإمكانه أن يزداد قوةً بفعل ما يقوم به العقل في مجال التنوير وكشف الأمور. وبذلك تزداد يقظة ميول الخير في الإنسان، وهذه بدورها تؤدي إلى المزيد من فعالية العقل.. وهكذا تتصاعد عملية التفاعل والتأثير المتبادل.

وبهذا المعنى، يكون العقل الذي هو من حيث الجوهر ملكة فنية قد أدى مهمة مثالية أخلاقية من حيث النتيجة العملية. إن تفاعل الضمير مع العقل يؤدي إلى تنبيه الضمير كميل مثالي، وإلى تقوية فعالية العقل كملكة فنية. لذلك، فكما أن الحرّية قيمة أخلاقية في الأساس، فإنها عامل مساعد على التقدّم وقوة دافعة في اتجاه الخير ومسألة تتعلّق بالمُثُل العليا في الجانب العملي أيضاً. ولذلك أيضاً، فممارسة الحرّية لا تقتصر على موضوع الاستجابة للمُثُل العليا وعلى تطبيق مبدأ أخلاقي، بل تتعدى ذلك إلى كونها وضعاً ضرورياً لحصول التقدّم نفسه. ومن هنا تكتسب حرّية الرأي بجميع أشكالها أهمية خاصة لأنها هي التي تفسح في المجال أمام العقل ليتفاعل مع الضمير ذلك التفاعل الضروري لعملية التقدّم.

إذن، فالحرية، في معناها الواسع، تعني العملية الكبرى الجارية في التاريخ لتحقيق المُثُل العليا والتوصّل المستمر إلى الحقيقة، أي حرّية أن تتمّ عملية التقدّم بأحسن ما يُمكن أن تكون عليه.

وهي في المجال العملي تعني حرّية العقل في تفاعله مع الضمير، ونشاطه في إبداع أشكال التطور ـ أي بناء النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ـ في مختلف مراحل التاريخ. فإذا كان الإنسان هو الجزء

المحدود من الكلّ، وإذا كان ضميره ليس إلاّ حزمة من نور الحقيقة الكلّية، وإذا كان عقله ملكة محدودة بحدوده ككائن. . إذا كان كل ذلك كذلك، فإن اتساع دائرة الإنسان يعني اتساع دائرة المحدود.

إن ميول الخير والنزعة إلى المُثُل العليا تكون أفضل وأقوى وأوضح عندما تتسع الدائرة من فرد واحد إلى مجموعة أفراد. فإرادة الخير في المجموعة لا بد أن تكون أوضح وأقوى من إرادة الخير في الفرد الواحد من تلك المجموعة. لذلك، فالعقل عند الفرد الواحد لا يكون بالفعالية والقوة اللتين تتأتيان من تفاعل عقول مجموعة من الأفراد. إن العقل يزداد مضاءً وقوةً ونشاطاً عندما يحتك بعقول الآخرين، تماماً كما يحصل عندما يجتمع أصحاب مهنة واحدة يتبادلون فيما بينهم ما يعرفونه وما اكتسبوه من قدرة ومعرفة فنّية بتلك المهنة.

إن الاجتماع بحد ذاته عامل إيجابي بالنسبة لمفعول الضمير وقوة العقل. وذلك أمر يُلاحظ عملياً في الحياة اليومية. فحالة الضمير وحالة العقل لا توجدان في وضع واحد عند الأفراد بل في وضعيات متباينة كما هو معروف في الواقع. والاجتماع من شأنه أن يولّد الاحتكاك كما تفعل المقارنة فعل المنشِّط، فيحاول المستوى الأدنى الارتفاع إلى المستوى الأعلى، ويسعى الذي في حالة سُبات إلى التنبّه والارتقاء إلى مستوى النشاط والعمل. . وهكذا. إن الحقيقة أقرب إلى الظهور في حالة الجماعة، وكشف الحقيقة أكثر احتمالاً عند العدد الأكبر. وكلما اتسعت الدائرة ازدادت هذه الاتجاهات قوةً. ومن هنا كانت الحكمة المعروفة عن مزايا الشورى وفوائد المناقشة واجتماع الآراء. فالمجموع أقرب إلى الحقيقة من الفرد، وذلك لأن الحقيقة ليست معلومة محدّدة وساكنة

في مكان ما فيأتي الإنسان ليلتقطها دفعةً واحدة وينقلها من مكان إلى آخر. ذلك فهمٌ ميكانيكي سطحي لعملية التقدّم وسيرورة التاريخ. إن الموجود في التاريخ هو عملية متحرّكة معقّدة من التقابل والتأثير المتبادل والالتقاء والاحتكاك بين حالات يغلب عليها التباين، فتحدث تلك العملية المتحرّكة المتعرّجة من الجذب والدفع والتأثير والتأثّر التي تنتج عنها عملية التقدّم التراكمي المستمر حيث يقوم الضمير والعقل بالدور الرئيس، وتتفاعل فيها الأخلاق مع العلم لتدفع الحياة نحو الرقي. إن دائرة هذه العملية هي الإنسان، أي البشرية، وإنْ بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة. ومن هنا يتضح أن موضوع التقدّم ليس هو الفرد بل مجموع الأفراد؛ إنه المجموع المعنيّ بالتقدّم؛ إنه المجموع المتأثر به. ومن هنا، فإن الحرّية مسألة تقع في صميم قضية التقدّم وليست على هامشها. وعلى وجه التحديد، إنها الحرّية المتجهة إلى نشاط المجموع ضميراً وعقلاً. فما المقصود بذلك؟

- ١٢ -

إن البحث في موضوع الضمير يمتّ إلى ما يُمكن أن نسميه بـ الأخلاق، أي البحث المتعلّق بالمُثُل العليا والحقيقة الكلّية للكون والإنسان والحياة. وفي هذا المجال يدور البحث حول مسألة المُثُل العليا: هل مصدرها الإنسان (أي العقل البشري)، أم مصدرها من خارج الإنسان؟ وهل هناك قوة مسيِّرة للكون أو أن ما هو موجود وُجد بدون سبب؟

أما موضوع العقل فمجاله التوصّل إلى معرفة القوانين التي تعمل بموجبها محتويات الوجود: الإنسان والطبيعة. وبعبارة أخرى، يتناول موضوع الضمير قضية الكلّ وماهيته، بينما يتناول موضوع العقل ما يدور ضمن ذلك الكلّ أي محتوياته، وهي القوانين التي تعمل بموجبها تلك المحتويات. إن الإنسان ـ كما سبق ذكره ـ جزءٌ محدود من الكون، وفيه شيء من الحقيقة الكلّية أي فيه نزوع إلى الخير وميل إلى المُثُل العليا. ويعني ذلك أن ما به من هذا الجانب إنما هو جزء من كلّ لذلك فهو محدود. والعقل البشري كمَلَكَة فنّية هو أيضاً محدود. وعلى ذلك، فإن القدرة الناتجة عن تفاعل الضمير مع العقل تبقى محدودة. لذلك، فإن عملية التقدم عملية مستمرة ومعرفة الحقيقة عملية تتسم بالتدرّج ولا تتمّ دفعة واحدة.

إن ضمير الإنسان مهما كان لا يستطيع إدراك الحقيقة مرّة واحدة. ولو حصل ذلك لحصل التقدم دفعة واحدة وتوقف بعدها، ولما كان هناك بالتالي تطوّر في التاريخ. إن ما يدركه الإنسان عدلاً في وقت من الأوقات ليس هو كل العدل، وما يجده حقاً في مرحلة من المراحل ليس هو كل الحق. . وهكذا. والعقل في نشاطه لاكتشاف القوانين التي تسير بموجبها محتويات الوجود (الكائنات الحية وما يحيط بها) يبقى محدوداً بحدود القدرة الفنّية لعقل ذلك الإنسان. إن الحقيقة كل الحقيقة لا تتكشف دفعةً واحدة. لذلك لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه يعرف كامل الحقيقة، وعليه دوماً أن يضع في حسبانه أنه قد يكون مخطئاً أو قاصراً. وعليه أن يحاول زيادة معرفته عن الحقيقة بتوسيع الدائرة بالالتجاء إلى الآخرين، أي بالذهاب إلى نشاط المجموع بدلاً

من الاقتصار على نشاط الفرد.

ومن ذلك يتضح أن القول ـ أو الميل إلى القول ـ بأن أحداً يستطيع أن يعرف كامل الحقيقة إنما هو قول متناقض مع المثل الأعلى ومتناقض مع العقل؛ إنه يجافي الضمير ويجافي العقل في الوقت نفسه. إن الموقف الذي يُقرّ بإمكانية الخطأ ويأخذ في الحسبان أن ما يتوصل إليه الفرد يبقى قابلاً للتحسين يؤدي منطقياً إلى الالتجاء إلى الآخرين، وبالتالي إلى موقف الحرّية. والعكس صحيح.

التاريخ يتكوّن من حوادث بغض النظر عن مصدرها أو تعلّقها بالإنسان أو الكائنات الحيّة الأخرى أو بالمحيط أي الطبيعة. والحوادث، في حقيقتها، ليست إلاّ أفكاراً وحركة. ومصدر الأفكار هو العقل البشري. أما الحركة فهي الفعل الذي يُكوّن مع الفكرة الحادثَ. يُقال: هناك تاريخ للحوادث وتاريخ للأفكار، في حين أن حقيقة الأمر هي أن الحوادث لا تكون إلاّ بوجود الأفكار. فكل حدث يبدأ من فكرة التي هي نقطة البداية في الحادث التاريخي. ومن ذلك يتّضح أن الفصل بين الحوادث والأفكار ليس إلاّ أمراً اصطلاحياً ذا غاية عملية. إن الحوادث في النهاية ليست إلاّ امتزاج الفكرة بالحركة، ولذلك فأي فصلٍ بين الفكرة والحركة ليس حقيقياً بل هو تصوّر ذهني يُقصد منه تسهيل مهمة الباحث. إذن فنقطة البداية في التاريخ هي الأفكار، أي نشاط العقل المتحفز بقوة الروح.

إن نقطة البداية هذه هي ما يُمكن أن ندعوه بـ **الثقافة**. فالثقافة ليست مجموعاً مجرّداً من التصوّرات التي ينتجها العقل مفصولة عن حركة التاريخ أو غريبة عن الروح التي تحرّكه. لذلك لا يمكن أن تكون

الثقافة نشاطاً عبثياً لا هدف له. فأفكار الإنسان مهما كانت فهي، في نهاية الأمر، نتاج فعالية العقل. ولكن العقل لا يتحرّك إلا بدافعٍ خيراً كان أم شرّاً.

إن العقل وهو يقوم بدوره في عملية التفاعل مع الضمير أو مع الغريزة يكتسب فعالية ويمارس نشاطاً يتصف بالتعقيد الذي يخلقه التفاعل. ويعني ذلك أنه من خلال التأمل والنظر في الأمور يتجول العقل بعيداً، ويقوم بمسح واسع لحوادث التاريخ والتفاصيل المستمدة من الواقع. ومن خلال ذلك التجوال والحركة المستمرة يخلق أشكالاً ويبتدع نماذج من الحلول عديدة. ومن مجموع كل ذلك الخليط المتباين من الأفكار والأنماط والحلول يختار العقل الأصلح والأمثل. ويعني ذلك أن العقل وهو يُمارس مهمته لا يتوصّل إلى الصيغة المُثلى مباشرةً، بل يبتدع كثيراً من الصيغ التي لا يستعملها، ويتولّد عن عملية التفكير كثير من الأفكار التي لا تحتوي على الجواب. إن ما ينتج عن عملية التفكير لهو أكثر مما يتطلّبه إيجاد الحل للمشكلة التي يُعالجها العقل. وكل ما ينتج عن عملية التفكير الموظَّفة لخدمة التقدّم يقع في عداد الثقافة. فالصيغ والأفكار التي تنتج عن عملية التأمل وتجوال العقل فيها ما يدخل في النهاية في تركيب الصيغة التي يتوصل إليها العقل كحلٍ للمشكلة التي يُعالجها، وفيها ما لا يدخل في ذلك. والثقافة هي كل ذلك الإنتاج العقلي سواء تضمّن شذرات الحقيقة المبحوث عنها أم لم يتضمن ذلك، لأنه نتاج العقل الباحث عن الحقيقة أي المتجه إلى خدمة ميول الخير في الإنسان. فعملية التفكير وهي تعمل على خلق الصيغ يتكوّن منها ناتج يُمكن أن ندعوه ناتجاً عرضياً ولكنه ناتج لا بد

منه، وتلك هي الطريقة التي يعمل بها العقل. فالحقيقة لا تُكتشف لوحدها بل في خضم الأفكار. ومن ذلك نستنتج أن الثقافة هي الأفكار التي ينتجها العقل لتجسيد الحافز الروحي أي تحقيق التقدّم. ويعني ذلك أن صفة الثقافة لا تشتق من علاقتها المجرّدة بالعقل، بل من علاقة ما ينتجه العقل في مجال التقدّم والارتقاء إلى الأفضل.

وفي هذا الصدد، يرد موضوع العلاقة بين التفكير والسلوك، أي العلاقة بين الفكر والعمل. الإنسان يتحرك ويعمل، إلاّ أن نقطة البداية في حركته وعمله هي التفكير. فالتفكير الذي يؤثّر في السلوك هو التفكير الذي حقّق ذاته، وهو التفكير الفعّال. وما تأثيره على السلوك إلا الدليل على الصدق والصدور عن الإرادة والاتصال بالجانب المثالي في الإنسان. أما التفكير الذي يحدث ولا يؤثّر في السلوك فهو تفكير غير مكتمل الصلة بالإرادة وبالجانب المثالي في الإنسان. لذلك كانت الأفكار التي تستطيع تغيير سلوك الإنسان هي الأفكار الناجحة في التاريخ والمؤثّرة في التطوّر، وهي أساس التقدّم للبشرية. إذن ما يأتي في مقدمة الثقافة هي الأفكار المؤثّرة وليست الأفكار الفاقدة لقوة التأثير في عمل الإنسان. وما النهضات الكبرى في التاريخ إلاّ أفكاراً تجسّدت في سلوك المؤمنين بها. . وهكذا كان الإسلام وجميع النهضات الكبرى في التاريخ.

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن الفن والأدب بمختلف

أنماطهما وصورهما ليسا إلاّ مظهراً من مظاهر النظام الدقيق الموجود في الكون. فالنظام لا يقتصر معناه على المعنى المتداول في حياتنا اليومية المتّصل بالقانون وتقنين الحياة بل يتعدى ذلك إلى موضوع التناسق والتوافق وروعة الجمال التي تشعّ من الإنسان وما يحيط بالإنسان.

فالجمال جزءٌ من قيمة عُليا هي النظام والتوافق والتناسق في المقاييس والإبداع في ترتيب علاقة الأشياء ببعضها. ولما كان الجمال، وكذلك الفنون بمختلف أنماطها مشتقّة من الصورة المنتظمة المتناسقة للكون وتعكس حالة الترتيب الموجودة فيه، لذلك فإن ذلك الجزء من الثقافة الذي تمثّله الفنون الجميلة يجب النظر إليه على أنه مقصود لأن فيه قبساً من الغاية الكلّية للوجود إن جمال الجسم البشري إنْ هو إلاّ نمط من أنماط النظام، كما هي الحال في دقّة الأنظمة التي تُسيِّر جسم الإنسان وتجعله يحيا بصورة طبيعية، وكما هي الحال في النظام الذي تسير بموجبه المجموعة الشمسية. إن الروعة التي تشعّ من النظام والتناسق والتناسب ودقّة العلاقات يُمكن أن تتجلى بأشكال مختلفة، وليس الجمال إلاّ إشعاعاً لذلك النظام بشكل من الأشكال، وليست الفنون الجميلة إلاّ نمطاً من أنماط الروعة.

إن الجمال وروعة الفنون هي التي تخلق الغاية وتُكسب العمل الفني بحد ذاته قيمةً. فالجمال الموجود في الطبيعة مثلاً غاية بحد ذاته لأنه إشعاع من إشعاعات نظام الكون. ولمّا كان نظام الكون غاية عليا، لذلك فإن جمال الطبيعة غاية بحد ذاته لأنه يؤدي المهمّة ألا وهي إجلاء مظهر من مظاهر ذلك النظام المحكم وإظهار محدّد للحقيقة. بعبارة أخرى، إن إظهار الجمال غايةٌ بحد ذاته سواء أكان ذلك في مشهد

طبيعي أم في قطعة موسيقية أم في لوحة تصويرية. إن إحقاق الحق وخلق التقدم وإبراز الجمال ليست إلا تجلّيات متعدّدة للحقيقة الكلّية. فالفن لا يكون فناً إلا بمقدار ما يقترب من تلك الحقيقة، أي بمقدار ما يعكسه من روعة وتناسق يؤثّران في النفس ويخلقان فيها الشعور بالرضا والسعادة.

ثم إن الإنسان جزءٌ من الكون، وفيه قبس من حقيقة الكون ألا وهو ميله إلى الخير ونزوعه إلى المُثُل العليا. لذلك نجده يشعر بالراحة والسعادة عندما يتحقّق العدل في قضية معروضة وتتدفق في نفسه مشاعر الرضا والروعة عندما يتكلل سعيه من أجل التقدم بالنجاح. كذلك وللسبب نفسه نجده يرتاح عند مشاهدة عمل فني رائع. فالسعادة التي يشعر بها هي السعادة نفسها لأن مصدرها واحد هو حصول التوافق والانسجام بين ما في داخله من قبس الحقيقة وما يشعّ من العمل الفني من جمال وروعة. إنه الاتحاد أو التوافق الذي يُحدث ذلك الرضا والراحة والسعادة.

ويحدث العكس عندما يقف الإنسان أمام حالة من حالات الظلم والقسوة أو البشاعة. فهو في مثل هذه الحالات يتعرّض لمشاعر الألم والتعاسة وعدم الرضا. والسبب هو التناقض التي ينتج عن تقابل الوضعين إلاّ إذا كانت الغريزة فيه قد وصلت إلى مرحلة الشرّ بطغيانها على الضمير الذي انطمس. لذلك، وفي هذه الحالة، يحدث توافق بين الشرّ المسيطر على النفس والمشهد الذي يتجلى فيه الشرّ ـ مشهد الظلم والقسوة أو البشاعة ـ فتحدث تلك الحالة من النشوة الغريزية التي تشعر بها النفس الظالمة عندما تشهد حالة من حالات الظلم. وذلك هو تفسير

ارتياح بعض النفوس الشريرة لمَشَاهد القسوة والبشاعة. إن التناقض يخلق الألم والتوافق يخلق الرضا في حالة الشرّ وفي حالة الخير كلتيهما.

وقد يكون للأدب والفن موضوع بائن وربما لا يكون. فالمنظر الجميل من الطبيعة ليس له موضوع بائن في حين أن اللوحة قد يكون لها موضوع بائن هو ما يراه المُشاهد. والقطعة الموسيقية ليس لها موضوع بائن يستطيع أن يسمعه السامع في حين أن للقصيدة موضوعاً بائناً هو ما تقوله كلماتها. وعلى ذلك، ففي حالة الفن البائن، يكون بالإمكان أن يؤدّي الموضوع بحد ذاته دور القرب من المثل الأعلى، أي نزعة الخير والتقدّم. وفي هذه الحالة يؤدّي الفن دوراً مزدوجاً، فهو يعكس الانسجام مع نزعة الخير مرّتين: مرّة عن طريق نقل الروعة والانسجام، ومرّة عن طريق الدعوة إلى الخير؛ وبعبارة أخرى: مرّة عن طريق البنية، ومرّة عن طريق الموضوع. وذلك بالضبط ما يحدث في حالة القصيدة الرائعة في بنائها والاجتماعية في مضمونها، وفي حالة التمثيلية واللوحة... إلخ. إن القصيدة أو التمثيلية أو اللوحة يُمكن أن تكون رائعة في بنائها ولا يكون موضوعها اجتماعياً، وعندها تبقى في عداد الفن وإنْ كانت تؤدّي وظيفة الفن عن طريق واحد لا عن طريقين شأنها شأن الجمال الذي يتجلّى في الطبيعة أو الروعة التي تتضح من القطعة الموسيقية. أما في حالة القصيدة أو التمثيلية أو اللوحة التي يكون موضوعها اجتماعياً غير أن الروعة الفنية ضعيفة أو معدومة فيها، فهي من حيث المضمون تقع في عداد المجهود الإنساني من أجل التقدم لكنها لا تندرج في عداد الفن. فالفن لا يكون كذلك إلا إذا انعكست فيه

روعة البنية. أما الأعمال التي لا تتوفر فيها روعة البنية ولا الهدف الاجتماعي فهي عبث لا طائل منه، حركة بدون هدف. وبالنسبة للأعمال التي تحرّكها الغرائز فهي ليست خارج دائرة الفن فحسب، بل إنها ذات ضرر بمقدار ما تضيفه من قوةٍ لقوة الشرّ واتجاه التخلّف.

بناءً على هذا الفهم، يكون العدل صورة من صور تجلّي الحقيقة. فالعدل في جوهره توافق وانسجام مع الحقيقة، إنه انعكاس لحالة النظام الذي يطبع الكون، لذلك فهو مثل أعلى. إن مبدأ «من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» تعبير بليغ عن علاقة العدل بالنظام الذي تتسم به الحقيقة. فالنظام والروعة والانسجام والتناسق.. كلها نعوت لحالة واحدة تتسم بها الحقيقة الكلّية. إن النظام في المجتمع إنما هو في الواقع أحد مظاهر الحقيقة. فالنظام يخلق التناسق والانسجام ويزيد من فعالية النشاط الإنساني ويُساعد على حفظ الحقوق والواجبات، وعن هذا الطريق يخلق الوضوح في العلاقات الاجتماعية. إن النظام في الجيش ينطوي على الروعة. والنظام في الحياة المدنية وفي مختلف المجالات ينطوي على الروعة والتناسق والانسجام ويمثّل نوعاً من التقدّم البشري وينطوي على شكلٍ من أشكال الجمال الذي يخلقه التناسق والتوافق بعكس حالة الفوضى. لذلك كان الانضباط منزلة متقدمة في سلّم الرقي البشري لأنه صادر عن التدريب والتهذيب اللذين يحوّلان حركة الفرد من حالة الفوضى إلى حالة الغاية. وهو بذلك، وبمعنى من المعاني، اقتراب من الحقيقة. من ذلك يتّضح أن الحقيقة تعبّر عن نفسها بأشكال متعددة. فالمُثُل العليا والنزوع إلى الخير والجمال والعدل والحرية والنظام والحق ليست إلا بعض تلك

الأشكال. ومن ذلك يتّضح أن المثل الأعلى هو في الحقيقة واحد. وإنْ كانت هناك تقسيمات، فهي ترجع لا إلى جوهر الحقيقة بل إلى مقتضيات الدراسة والتصنيف لتبسيط الأمور. فالحق والخير والنظام والجمال تسميات لجوهر واحد هو الحقيقة التي تتجسّد بمسميات متعدّدة وتتجلى في غاية الوجود ككل. إنه نظام الكون والقوة الفاعلة فيه وجوهر الأشياء. فالروعة التي يشعّها الجمال هي من حيث الجوهر ما ينبعث من حالات الحق والعدل والحرية نفسها. وبكلمات موجزة، إنه الصعود نحو الأفضل، وكل ما ينتجه العقل متّجه إلى محاولة الاقتراب من فهم تلك الحقيقة عن طريق ما تتمثّل به من مظاهر وتلبية نزعة الخير في الإنسان في صياغة النُظُم الملائمة لتلك النزعة.

إذن هناك وحدة وليس تعدّد في الحقيقة. ويُلاحظ تاريخياً أن الحضارة العربية في عصر الإسلام قد عبّرت عن وحدة الحقيقة هذه، لذلك نجد أن المفكّرين العرب كانوا في الغالب يبحثون في حقول علمية وفنية متعددة. فالواحد منهم يجمع بين الطب والفلسفة والموسيقى والتاريخ والشعر... إلخ. أما في الغرب في العصر الحديث وبدافع عملي ومن أجل الحصول على مزايا تقسيم العمل، فقد أخذ مفكّروه بالتخصّص وأمعنوا فيه. ولكنهم سرعان ما أدركوا خطأ ما قاموا به حيث أصبح المتخصّص قاصر الفهم في نواحي الحياة الأخرى، وأصبح التخصّص عاملاً سلبياً في مجال توسيع مدارك الباحث عن الحقيقة. لذلك بدأ الرجوع ثانيةً إلى التعدّد حيث اتضح أن الفصل بين حقول المعرفة ليس حقيقياً بل إن القوانين التي تنظم عمل الطبيعة وسير الكون وحياة الإنسان ليست إلا تعبيراً متعدّد الأشكال عن الحقيقة الكلّية.

ومن الأمور المهمّة في البحث عن الحقيقة قضية الاختلاف والتشابه أو الاختلاف والتطابق. فنحن عندما ندخل ميدان البحث والنظر في الأمور، لا بد أن نسأل: لماذا تتشابه (أو تتطابق) بعض الأمور ولماذا تختلف أمور أخرى؟

بعبارة توضيحية أخرى، هل يُمكن اعتبار الاختلاف دليلاً على غياب النظام واعتبار التشابه (أو التطابق) دليلاً على وجوده؟ هل التشابه دليل على وجود قانون ثابت يؤدي إلى تكرار حدوث الأشياء كحالة الآلة التي إذا ما تحرّكت بشكل معيّن أنتجت سلعة معيّنة، وإذا ما تكرّرت الحركة نفسها أنتجت السلعة نفسها. . وبذلك يُمكن إنتاج سلعة بشكل نمطي يُكرِّر نفسه، أما إذا تغيّر نظام تحريك الآلة في كل حالة فتكون السلعة التي تنتجها مختلفةً في كل حالة عن الحالة التي سبقتها وبذلك ينعدم التكرار والتطابق؟

إن التباين والتشابه موضوع يتعلّق بالتفاعل وكيفية التقاء العوامل الداخلة فيه. والتفاعل هو التقاء العديد من العوامل. والعوامل عندما تلتقي يُؤثِّر كل منها في العوامل الأخرى، فتحدث شبكة من التأثيرات. وبما أن لكل عامل قانوناً أو طريقةً في التأثّر والتأثير، أي التأثير في العوامل الأخرى واستلام تأثيرات كل من تلك العوامل، لذلك فإن الذي يحدث عند ذلك الالتقاء هو التقاء قوانين متعدّدة. والمقصود بالقانون هو كيفية تأثير العامل في كل عامل آخر تحت كل ظرف من الظروف. والظرف يعني كل شيء آخر له علاقة بعملية التأثير، فقد يكون الظرف الوقت وقد يكون المكان وقد يكون وجود عامل مؤثِّر آخر دون سواه.

إذن، فعندما تلتقي عوامل عديدة تتفاعل كلها حسب قانون تفاعلها مكوّنةً عملية تفاعل مركّبة تنتج عنها نتيجة ما. فعوامل التأثير الداخلة في التركيب تؤثّر في بعضها من حيث الكمّية أو النوع أو أي من الخصائص والصفات الأخرى. والتركيب المعقّد للتفاعل هو الذي يخلق التباين. ولنضرب على ذلك مثلاً: الإنسان. الإنسان ككائن حي فيه عامل تشابه عام إلاّ أن دارسي الطب يعرفون جيداً أنه بالرغم من التشابه الظاهري والتكرار العام هناك اختلاف في التركيب. فكل مولود يُولد له جسم مختلف عن الآخرين من حيث المناعة والذكاء وكفاءة الأجهزة وغيرها من الصفات.. الأمر الذي يجعل كل مخلوق حالة قائمة بذاتها من حيث الكفاءة الفيزياوية، بما في ذلك مَلَكَة التفكير. إن لهذا الاختلاف سبباً ولا شك. وقد حاول دارسو الوراثة إلقاء الضوء عليه وحقّقوا بعض التقدّم، كما حاول علماء التربية وعلماء النفس معرفة أسباب التباين في السلوك والطباع والوضع النفسي للإنسان منذ نشأته الأولى. وبالرغم من محدودية التقدّم الذي تحقّق حتى الآن في هذه المجالات، تبقى مسألة التباين غير معروفة الأسباب تماماً. ولا يرجع ذلك إلى انعدام النظام في الكون بل إلى نقص في معارفنا نحن عن ماهية العوامل التي تدخل في التركيب وتؤدّي إلى تحديد خصائص كل إنسان يولد.

ويبدو لنا أن تشابه الظروف التي ينشأ فيها الطفل لا تؤدّي تلقائياً إلى تماثل الشخصية. فالتوائم الذين ينشأون في بيت واحد ويدرسون الدراسة نفسها لا يتماثلون تماماً. وسبب عدم التماثل يفسّره عدم تماثل تركيبة العوامل المتفاعلة التي تقرّر كامل الصفات الجسمية والعقلية للإنسان. إن التوائم التي تتماثل بعض ظروفها لا تتماثل بعض ظروفها

الأخرى حتى عندما تنشأ وسط ما يبدو لنا أنها ظروف متماثلة. إنه تعقيد العوامل الداخلة في التفاعل. فالمعروف مثلاً أن الطفل التوأم الذي يولد بدقائق أو حتى بلحظات قبل التوأم الآخر لا بد أن يختلف عنه في شيء من الأشياء. إن تاريخ البشرية لا يعرف حتى الآن حالةَ تطابقٍ كاملٍ بين مخلوقين توأمين، لذلك كان بين البشر صفات تشابه وصفات اختلاف في الوقت نفسه. فهناك ما هو مشترك وهناك ما هو خاصّ. ويذا كان لكل إنسان جسمه وعقله الخاص به. وحتى العنصر المثالي في الإنسان الذي هو قبس من إرادة الخير الكلّية في الكون لا يوجد بشكلٍ واحد عند الجميع، لأن عملية الصراع المستمرة بين الضمير والغريزة لا تكون واحدة عند الجميع بل تتباين من إنسان لإنسان، لذلك كان لكل فرد وصفه الخاص في هذا الجانب. إذن، الجسم والعقل والضمير عناصر لا تتماثل بين الناس بل تتباين من فرد إلى فرد، وهذا هو معنى القول إن لكل إنسان شخصيته مهما كانت صفات التماثل الأخرى الموجودة فيه مع بقية الناس.

السؤال الذي يرد في هذا المجال هو: هل باستطاعة الإنسان أن يزيد من عوامل التماثل؟ وبصياغة أخرى: هل بإمكاننا إزالة التباين ـ إلى حد ما على الأقل ـ في الوضع الجسمي والعقلي والخلقي الموجود بين مجموعة من الناس؟ الجواب: نعم، وتلك هي مهمة التربية. فما هي التربية؟

التربية هي التقدّم باتجاه الأفضل، وعن هذا الطريق يمكن تضييق الاختلاف أو زيادة التماثل. والتربية أصناف؛ فهناك التربية الجسمية، وهناك التربية العقلية، وهناك التربية الخُلُقية (أو ما يُمكن أن نسمّيها

بالتربية السلوكية).

التربية الجسمية تهدف إلى تحسين الصحة، وهي في حقيقتها تعني تحسين صحة الضعيف ليتماثل مع صحة القوي أو يقترب منه، أي تقليل الفرق بين صحة هذا وذاك؛ إنه التقارب من خلال الارتقاء. ووسائل هذا النوع من التربية معروفة في مجالَيْ الوقاية والعلاج، بكل ما يقع في عدادها من أساليب تقوية الجسم وتعويض النواقص فيه وحمايته من الضعف والمرض. والتربية العقلية تتولّى مهمة زيادة مَلَكَة التفكير قدر الإمكان، أي بقدر ما يسمح به الذكاء الفطري. أما وسائلها فهي مختلف وسائل التدريب وتطوير المَلَكَة العقلية وتدخل فيها أيضاً صحة الجسم ككل وصحة الدماغ بوجه خاص. وأخيراً هناك التربية الخُلُقية، وهي تقويم السلوك وتنبيه الضمير وتحفيز ميول الخير ومقاومة ميول الشرّ واندفاعات الغريزة. ويتمثل نضال البشرية في هذه الحقول الثلاثة فيما تحقّق في علم الطب والتربية وعلم النفس. إن تقدماً ما قد حصل في جميع هذه الميادين وإنْ لم يكن متساوياً في كلٍ منها. وبمقدار ما يتحقّق من تقدم يستطيع الإنسان أن ينجز أكثر في مسعاه من أجل تحقيق المزيد من التماثل عن طريق الارتقاء. ويقع ذلك في صميم مجمل قضية النضال الإنساني عبر التاريخ من أجل التقدم.

ويجب ألا يغيب عن البال أن السعي من أجل تقليل عوامل التباين إنما يُقصد منه على وجه الدقة التقارب وليس التماثل أو التطابق. فالتربية الصحيّة مهما بلغت وعلم الطب مهما حقّق من تقدم لا يُمكن أن يزيلا التباين الدقيق بين الناس من حيث الصحة والتركيب الجسمي. كما أن التربية العقلية مهما بلغت لا يُمكن أن ينتج عنها تطابقٌ في المَلَكَة

العقلية بين الناس إذْ المقصود منها هو تقليل الاختلاف وتحقيق التقارب ليس إلاّ. ويصحّ الشيء نفسه على التربية الخُلُقية. وخلاصة القول إن الجهد الإنساني بإمكانه أن يكون مؤثّراً في اتجاه تقليل الفوارق، ولكنه مهما كان لا يستطيع خلق حالة التطابق، وهكذا تبقى الاختلافات بين إنسان وإنسان قائمة.

وهناك جانب آخر في موضوع التباين والتشابه يتعلّق بالمجتمع. تناولنا فيما سلف الموضوع من ناحية صفات الإنسان الفرد. إلاّ أن الفرد ليس هو الكيان الوحيد بعد ظهور المجتمع. المجتمع كيان آخر له شخصية وصفات وعلاقات بالكيانات الأخرى. وكان ظهور المجتمع لسبب جوهري هو أن الإنسان بعد مرور مدّة على وجوده رأى من خلال التجربة أن العيش كأفراد غير ممكن لذلك أوجد كياناً آخر هو المجتمع.

المجتمع وحدة بشرية فيها عوامل التماثل إلى جانب عوامل التباين. وكان تكوين المجتمع نتيجة تفاعل بين مجموعة بشرية ضمن ظروف متشابهة. وقد استمرت عملية التفاعل بمرور الزمن، وكان من نتيجة عوامل التماثل ظهور اللغة المشتركة وتكوين التاريخ المشترك والعادات والتقاليد المشتركة. وكلما مرّ الوقت وتقادم الزمن استمرت عملية التفاعل وازدادت معها عوامل التماثل.. وهكذا تكوّنت الأمة. وبما أن عملية التفاعل في كل مجتمع تتمّ بفعل عوامل تخصّ ذلك المجتمع، وهي عوامل تختلف عن عوامل التفاعل في مجتمع آخر، لذلك بدأت شخصية كل مجتمع تأخذ طابعاً خاصاً وأخذت السمات القومية تتكوّن لدى كل أمة ضمن ظروفها وحسب عوامل التفاعل الداخلة فيها.

إن ظروف كل أمة لا يُمكن أن تتكرر تماماً في أمم أخرى. فظروف الأمم قد يتقارب بعضها ولكنها لا يُمكن أن تتطابق، لذلك كان لكل أمة صفاتها الخاصّة بها. ومهما ظهر على السطح من سمات التشابه، فإن عوامل التباين ترقد في أعماق كل مجتمع. صحيح أن هناك صفات مشتركة، إلاّ أنه بجانب تلك هناك عوامل التباين. إن عملية التفاعل التي تجري في كلّ مجتمع خلال التاريخ لا يُمكن تكرارها تماماً في أمة أخرى، لذلك لا توجد أمة تتطابق في صفاتها مع أمة أخرى، مثلما لا يوجد فرد يتطابق مع فرد آخر في كل شيء. إن خاصية التباين هي الصفة الأساسية لوضع الأمم في العالم.

وهكذا كان نشوء المجتمع يُمثّل نزوع الإنسان إلى التقدّم لأنه وجد أن صيانة حقوقه، بما في ذلك الحقوق المتعلّقة بالحياة، من جميع الوجوه تتطلّب تنظيماً غير ما هو موجود، أي تتطلّب الارتقاء إلى وضع جديد دفاعاً عن الحياة. وهكذا كان الحافز هو النزوع إلى ما هو أفضل. إن مجمل عملية التطوّر من الوضع الفردي إلى ظهور الأمة إنْ هو إلاّ نزوع مثالي تحرّكه إرادة الخير في الإنسان. وهكذا كان نشوء الأمة عملاً من أعمال التقدم والارتقاء تحرّكه الروح وتحفزه إرادة الخير. فالأمة تنشأ وتتكوّن مكوّنةً لنفسها صفات محدّدة، وتتضح بمرور الوقت إرادتها وأهدافها وترسم لنفسها دوراً في الحياة. وهي عندما تسعى إلى رفاهية أبنائها ورفع مستواهم وتحسين أحوالهم من جميع الوجوه، ونقلهم من الحياة البدائية إلى مرتبة أعلى في سلّم الرقي، إنما تعمل ذلك بدافع مثالي وتؤدي دوراً مثالياً. وتستطيع الأمة التي تتوفر لها عوامل الرقي المؤاتية أن تذهب إلى أبعد من ذلك بالإسهام في رقي

الأمم الأخرى عن طريق ما تقدّمه في مجال الإبداع والتقدّم المفيدين للآخرين وبذلك يكون لها دور إنساني. ويعني ذلك أن لقيام الأمة من الأساس مغزى مثالياً، ويُمثّل في حقيقته تجسيداً للمثل الأعلى واستجابة لضمير الإنسان.

ومهما تباينت الآراء في كيفية نشوء الدولة، فإن الثابت هو أنها قامت بدافع الرغبة في الانتقال من وضعٍ إلى وضعٍ أفضل منه. إنها عملية تفاعل تستغرق وقتاً طويلاً وتدخلُ فيها عناصر متعدّدة حيث تجري عملية التفاعل بين الأفراد من جهة، وبينهم كمجموع وبين الظروف المحيطة الطبيعية والبشرية من جهة أخرى. ومن خلال ذلك التفاعل المعقّد المستمر على امتداد الأجيال تتكوّن الأمة بشخصية محدّدة، لها لغتها وتاريخها ووطنها، ولها اقتصادها وطريقة معيشتها، ولها عاداتها وقوانينها، ولها دولتها ونظامها، ولها أهدافها، ولها ضميرها، ولها إرادتها. وكما أن الفرد وحدة حيّة، كذلك تصبح الأمة، بمعنى من المعاني، وحدة حيّة مختلفة عن الأمم الأخرى تجمعها صفات تماثل إلى جانب صفات التباين.

من ذلك يتبيّن أن هذا المستوى من التقدّم الذي تحقّقه إرادة الخير في نشوء الأمة وقيام دولتها المستقلة، والذي يُمثّل مرحلة متقدمة على مرحلة الفرد، إنجاز تحرص الأمة عليه. لذلك، فكل حالة تتناقض مع هذا الوضع تُعتبر تقهقراً إلى الوراء ووضعاً شاذاً تسعى الأمة إلى معالجته وإزالته. فعندما تقع أمة تحت سيطرة أمة أخرى أو تحت أي نفوذ يحدّ من حريتها وينتقص من سيادتها تتحرك فيها إرادتها لتصحيحه عن طريق تحقيق استقلالها التام. وعندما تتجزأ أمة وتفقد وحدتها يحصل فيها

ذلك الشعور نفسه، فيتنبّه ضميرُها وتتحرك فيها إرادة التقدّم فتبدأ تُناضل من أجل تصحيح أوضاعها بإزالة التجزئة والرجوع إلى الوحدة. إن نضال الأمم عبر التاريخ ضد الأوضاع التي تنتقص من الحرّية ومن الوحدة ومن سلامة أرض الوطن لم يكن في دوافعه غير ذلك. وقد شكّل ذلك النضال جزءاً مهمّاً من تاريخ البشرية، وهو بحد ذاته يقدم الدليل على نزوع الخير المتأصل في الإنسان وعلى وجود تلك الإرادة الكلّية في الكون.

وتترتب على هذا الفهم لوضع الأمة ككيان اجتماعي نتائج مهمّة. ولعلّ أهمّ ما يُمكن أن يُستنتج منه هو أن الانتقاص من حياة الفرد وحريته كالانتقاص من وحدة الأمة وحريتها كالانتقاص من وحدة الوطن الذي تسكنه الأمة من حيث أن كلاً من هذه الحالات تمثّل وضعاً يتناقض مع إرادة الخير في الإنسان والكون، وهي بالتالي حالات تقف بالضد من اتجاه التقدّم وتتعارض مع الوضع الأخلاقي لما يجب أن تكون عليه أوضاع البشرية، وبعبارة موجزة، هي أوضاع غير شرعية. ومن الناحية العملية فإن هذه الأوضاع، بسبب تناقضها مع الإرادة الكلّية في التاريخ، لا يُمكن أن تبقى بل هي زائلة عاجلاً أم آجلاً. إن النتيجة العملية للصراع بين إرادة الخير وإرادة الشرّ هي في نهاية المطاف لصالح إرادة الخير حتماً مهما طال الوقت ومهما كانت التضحيات التي تسببها عملية الصراع.

وكما أن مقوّمات الفرد هي الجسم والعقل والضمير، كذلك الأمة فإن فيها الجسم الذي هو قواها المادية المتكوّنة من مجموع أجسام أفرادها ومحيطها وطبيعة بلادها بما فيها ثرواتها الطبيعية. وفيها أيضاً

العقل المتكوّن من التفكير العام، وفيها الضمير الذي هو إرادتها. الجسم هو قوة العمل وثروة الطبيعة، أما العقل فهو الثقافة العامة للأمة من علوم وآداب وفنون، وأما الضمير فهو المبادىء الأخلاقية والمُثُل العليا. وفي هذه المجالات تحتاج الأمة، لا سيما عندما تكون سيادتها أو وحدتها منتقصة، تحتاج إلى تقويم هو بمثابة التربية في حالة الفرد. فكما أن هناك تربية على نطاق الفرد، هناك أيضاً تربية على نطاق الأمة. وكل ما يُصلح قوة العمل فيها ويُطوِّر مواردها الطبيعية يُشكِّل تقويماً مادياً لها. وكل ما يُطوِّر ثقافتها إنما هو تقويم للعقل فيها، وكل ما يقوّي إرادتها ويحفز ميول المُثُل العليا فيها إنما يُقوِّم ضميرها وروحها.

وفي حالة الأمة، تقوم الثقافة بدور الكاشف والموضِّح لعمل الضمير وفعالية الإرادة. إن الثقافة بمختلف فروعها هي نتاج العقل، وبإمكان ذلك النتاج أن يكون في خدمة إرادة الخير كما يُمكن أن يكون في خدمة إرادة الشرّ، كما هي الحال مع الفكر التحرّري الوحدوي التقدمي في مقابل الفكر الذي تنتجه دنيا الاستعمار وتنشره بين الشعوب الواقعة تحت نير الاستعمار والأمم المجزأة الفاقدة لوحدتها القومية.

إن عملية النهضة هي تلك الحركة المعقّدة التي تجتمع وتتفاعل فيها جميع الجهود في مختلف النواحي وعلى مختلف الجبهات لتحسين الأوضاع المادية والعقلية والأخلاقية.

ـ ١٥ ـ

إن الواقع الذي تجري فيه عملية التقدّم من خلال التناقض بين

وضعٍ ووضعٍ لهو أكثر تعقيداً وأكثر خصوصية ممّا ذكرنا. قلنا إن الذي يطبع التقدم الإنساني هو التناقض بين الموجود والمرغوب فيه، أو بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، ولكلٍ من الجانبين محفز. ما هو كائن محفزه دوافع الشر والغريزة، وما يجب أن يكون محفزه إرادة الخير. وكل جانب يستخدم المَلَكَة العقلية أي التفكير كوسيلة إيضاح. فتدور تلك العملية الواسعة على نطاق المجتمع من التأمل والنظر في الأمور والتفكير في الأوضاع وتكوين المواقف وصياغة الحلول وتركيب النظريات بكل ما يتبعها من إنتاج علمي وأدبي وفني مما ندعوه بالثقافة. وبذلك تدخل عملية التفكير بكل نواحيها وبجميع اتجاهاتها في خضم هذا التناقض، كلّ لمصلحة ما يدعو إليه ويسعى من أجله: الخير أو الشرّ. إن نشاط العقل في هذا المجال إنما هو دنيا واسعة متشعبة من الفعالية والإنتاج تستغرق الناس والوقت وتتسع لتشمل دوائر واسعة من المجتمع ويشترك فيها عدد كبير من أفراد المجتمع وتستغرق الزمن الطويل مكوّنة ما ندعوه بدنيا العقل والتفكير.

ودنيا العقل، كما سبقت الإشارة إليها، هي دنيا القوالب الفكرية والنظريات المنسّقة المتكاملة. ويكوّن كل ذلك وضعاً بإمكانه أن يستغرق الفرد ويطغى عليه. وكما أن ذلك يحدث في جانب الخير، فهو يحدث أيضاً في جانب الشرّ. إن جانب الشرّ يتمسك عادة بالموجود، والموجود له قوة إضافية ناشئة من كونه موجوداً. والموجود يكتسب بمرور الوقت قوة الاستمرارية ويمدّ بعض الجذور، فالمصالح تتشابك وأفكار الغرائز والأنانية تتفاعل مع بعضها ويقوّي بعضها بعضاً بصورة حلزونية متبادلة التأثير.

ولعلّ أهمّ قوة إضافية يكتسبها الموجود تأتي من الخارج، أي من الجهات التي تسعى بدوافع المصالح الشريرة - وهي دنيا الاستعمار والاستغلال والعدوان على الآخرين. وهكذا وبفعل هذه الصفات، تكون القوى التي تُساند الوضع الموجود أكبر وإمكانياتها أوسع. وفي هذا الخضم تظهر ثقافة الوضع الموجود ببريق وعلائم قوة وتكوّن مناخاً وغلافاً جوياً خاصاً يؤثّر فيمن يقع تحت تأثيره. وهكذا تبدو دنيا الموجود وكأنها هي المنتصرة ولا سبيل إلى تغييرها، فهي الأبدية والقدر المحتوم الذي لا يقهر ولا مفر منه. هكذا كان الوضع في حالات الاستعمار عندما كان في أوج قوته، وهكذا كانت أوضاعه تبدو آنذاك. وكل حالة من حالات الاستعمار التي تلاشت وانهزمت أمام إرادة الخير كانت في وقت من الأوقات تبدو أزلية غير قابلة للتغيير، ولم يكن العقل المجرّد آنذاك يشير إلى إمكانية تغييرها. العقل الذي كان يشير إلى ذلك كان في الحقيقة واقعاً تحت تأثير دنيا الواقع الموجود ومتأثراً بثقافته. وتلك مسألة مهمة من مسائل النظر في قضية التفريق بين العقل والضمير.

إن العقل ليس إلا أداة ومَلَكة فنية ويجب أن نرجع إليه على هذا الأساس ونستخدمه لغرض محدّد معروف مسبقاً هو الإيضاح والصياغة لما يقوله الضمير. إن الضمير هو الذي يفصل ويقول الكلمة الأولى، وهو الذي يصدر الحكم فيما يجب وما لا يجب، في صلاح الموجود أوعدم صلاحه، أي في مجمل قضية التقدّم للإنسان. أما العقل فوظيفته فنّية هي ابتداع الوسائل لتحقيق الحكم الذي يصدره الضمير؛ إنه تنفيذ كلمة الضمير وليس الحلول محله. إن الخطأ الكبير الذي يقع فيه

بعضهم - عن وعي أو بدونه - يأتي من إحلال العقل محل الضمير، بالرجوع إلى العقل بدلاً من الرجوع إلى الضمير، عندما يكون الأمر يتعلق بإصدار حكم تقويمي لوضع الإنسان على نطاق الفرد أو على نطاق الأمة.

فعندما يكون الموجود قوياً ذا دفاعات متينة مادياً ومزوَّداً بثقافة برّاقة، يتكوّن بمرور الوقت ذلك الغلاف الجوي الخاص بالوضع الموجود، فيصبح المجتمع كله تقريباً يعيش في جو مصطنع أشبه ما يكون بالبيت الزجاجي الذي تُربى فيه بعض النباتات. كل شيء في ذلك الجو يشير باتجاه الوضع الموجود لا سيما الثقافة وما ينتجه العقل. في مثل هذا الوضع يتنبه الضمير وتتكوّن نقطة البداية للتناقض. ولكن الذي يتقابل الآن هما طرفان غير متكافئَين من حيث القوة المادية، فشتّان بينهما في ذلك. وهنا تتكوّن المغالطة، وهي أنه بدلاً من أن يتكلم الضمير يأتي الرد بطلب الاحتكام إلى العقل. ولما كان العقل بمجمله في وضع كهذا قد وُضع في خدمة الواقع الموجود فصاغ له المبررات وركّب له النظريات في سبيل بقائه واستمراره، فإنه والحال هذه لا يصلح أن يكون الحَكَم والمرجع. الحَكَم أو المرجع يجب أن يكون الضمير وليس العقل. فالضمير هو مصدر معرفة الخطأ من الصواب والخير من الشرّ، وليس العقل الذي قُلنا عنه إنه مَلَكَة فنية لتوضيح المواقف وليس لخلقها. وإذا ما جرى تحكيم العقل في مثل هذا الوضع، فلن يكون لديه غير أن يحسب الأرباح والخسائر، أي حساب ميزان القوى. وعلى هذا الأساس، لا بد أن يكون الحُكم لصالح بقاء ما هو موجود أي بقاء القديم على قدمه. هكذا كانت نظرة العقل إلى

البدايات الأولى للثورات الكبرى في التاريخ. إذن فالذي يجب اللجوء إليه لإصدار القرار هو الضمير. وبعد أن يصدر الضمير قراره نلجأ إلى العقل ونستخدمه لخلق ثقافة الموقف الجديد، أي أن نوجد ثقافة لمعسكر الخير تقابل ثقافة معسكر الشرّ. فعندما يكون الفرد مظلوماً مثلاً فعليه أولاً أن يلجأ إلى داخل نفسه، إلى ضميره. وكذلك الأمة عندما تكون مستعمَرَة أو محتلَّة من قِبَلِ قوة غاشمة أو مجزّأة فاقدة لوحدتها عليها أن ترجع إلى ضميرها وتُقارن ما هو كائن بما يجب أن يكون وبعدها تعبىء قواها وأوّلها قواها العقلية من أجل تحقيق ما يريده ضميرها.

في البداية، من المنتظر أن تكون عملية نشوء قوة معسكر الخير بطيئة ومتعثّرة، إلا أنها بمرور الوقت وبالإصرار والثبات تكتسب قوة تراكمية نامية ويبدأ تأثيرها بالظهور. . تماماً كما تؤثّر قطرات الماء في الصخر الذي تسقط عليه باستمرار. وفي هذا المعنى، غالباً ما نسمع كلاماً عن الإيمان، والإيمان في الحقيقة ليس إلاّ الرجوع إلى الضمير والاستماع إليه والتمسّك بموقفه. وبذلك لا يكون الإيمان مجرّد تعصّب بلا أساس، بل هو في الحقيقة يستند إلى أقوى الأُسس، ألا وهو وجود النزوع الأبدي إلى الخير في الإنسان.

وربّ سائلٍ يسأل: وكيف تتمّ عملية نمو قوة الخير ويتحقّق النصر في النهاية لمعسكر هذه القوة مع أنها تبدأ صغيرة ضعيفة؟ الجواب هو أن النزوع إلى الخير موجود في معسكر الخير كما أنه موجود في معسكر الشرّ نفسه. والفرق بين المعسكرين ليس في أن الخير موجود في واحد ومفقود في الآخر، بل في درجة قوة وجوده. فهو في معسكر أقوى منه

في المعسكر الآخر، أي أن الفرق نسبي. فحيثما تكون الغريزة أقوى، فهي قد تستطيع أن تسيطر ولكنها لا تستطيع القضاء على الضمير. الضمير عند عُتاة المجرمين والخونة يكون في حالة سُبات، إلا أنه مع ذلك موجود. وليس كل الذين ينخرطون في معسكر الشرّ متساوين في درجة السُبات الذي تكون فيه ضمائرهم. فالصراع يلقي مزيداً من الضوء على الأمور بمرور الوقت، فيتضح الغامض منها وتُختبر كثير من الفرضيات وتتجلى نتائج كثير مما لم يكن معروف النتائج. وهذا الذي يحدث يفعل مفعوله في كلا المعسكرين. ففي معسكر الخير تقوى الثقة بالنفس وتتبدد الشكوك ويتّضح زيف الادعاءات وتنكشف المعلومات المضللة، فتزداد قوة الإنسان واطمئنانه وتزداد المؤشرات على صحة موقفه، فيحصل عنده الرضا بما يفعل والراحة والطمأنينة ويقوى في داخله الحافز على السير قُدُماً وقبول التضحية وتحمل المشقّة. أما في معسكر الشرّ فيحصل العكس تماماً حيث يظهر الضعف وزيف الادّعاء وضلال المعلومات، فتهبط المعنويات وتثار الشكوك وتضعف الثقة، فيزداد الألم والشعور بالندم ويتكوّن اليأس من المستقبل. وهكذا يدبّ فيه الضعف كلما احتدم الصراع وطال الوقت. إن الصراع يُنبِّه الضمير النائم ويُوقظ الإرادة المستكينة، وبذلك تنشأ في معسكر الشرّ بذور للخير تفعل فعلها في هبوط الروح المعنوية وحصول الانهيار في نهاية المطاف.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى دور المثال في عملية يقظة الضمير. والمقصود بذلك هو أن الإنسان عندما يستمع إلى الكلام تحصل لديه مراجعة النفس بما سمع، وبذلك يكون للكلام أثر. ولكنه

عندما يرى مثالاً عملياً على يقظة الضمير، يكون الأثر أقوى وأفعل. وبكلمات أوضح: عندما تكون الأمة مجزّأة، فالكلام عن ضرورة الوحدة يُمكن أن يكون له أثر في إيقاظ الوعي القومي، ولكن التضحية في سبيل الوحدة من قِبَلِ فردٍ أو أفراد لا سيما التضحية بالحياة لها أثر أقوى من أي أثر للكلام. إن الإقدام على التضحية هو الدليل العملي على الصدق والالتصاق بالحقيقة. إن مجرد الكلام عن الوحدة قد يكون صادقاً وربما لا يكون. وهو عندما يكون صادقاً لا بد أن يكون مؤثّراً وصادراً عن موقف وجداني إلى الدرجة التي تبعث على الإقدام على التضحية. إلا أن الكلام ربما لا يكون كذلك، فقد تكون علاقته بالضمير ضعيفة لدرجة لا تقوى على تحريك الإقدام على التضحية. أما حصول التضحية فيقدّم الدليل الدامغ على الصدق والقوة في الموقف، وهذا ما يحرّك الضمير ويدفع في اتجاه المُثُل العليا.

إن الإنسان الموجود لسببٍ أو لآخر في معسكر الواقع ـ معسكر التجزئة ـ لا يتأثر بالكلام عن الوحدة بقدر تأثره بالتضحية في سبيلها. فهو عندما يرى الصدق والإقدام على البذل عند أفراد معسكر الوحدة يهتزّ عنده الضمير وتتحرّك الأحاسيس ويبدأ عنده شعور داخلي يقول لضميره لو لم يكن أولئك المضحّون في سبيل الوحدة على حق لما أقدموا على التضحية. وهكذا ينمو الشك وتتزعزع الثقة ويقوى تحرّك الضمير والتعاطف مع المعسكر المقابل. إن تحوّل القول إلى عمل وتجسيد الموقف بالتضحية يفعل فعله في إيقاظ الضمير وتقوية الموقف الأخلاقي للمدافعين عن الحقيقة، وبذلك يتطوّر التناقض إلى موقف الجدّ، وموقف الجدّ هو الذي يجلب الانتباه ويهزّ أعماق النفس.

واليوم، ماذا نرى في واقع الأمة العربية؟

نرى أن الأمة التي توحدت وأنشأت مجتمعاً واحداً وعاشت مدة طويلة في وضع الصحة والتقدّم وحصلت على مكانة عالية بين الأمم وأبدعت في مجال الحضارة والرقي. . نرى هذه الأمة قد حصل لها كل ذلك نتيجة ليقظة ضميرها وتحرّكه في اتجاه المُثُل العليا. وليس الإسلام إلاّ مثالاً عملياً وحالة محدّدة من حالات التقدّم الإنساني بفعل النزوع إلى الخير الموجود فيها كما هو موجود في غيرها. والإسلام كحدث تاريخي يُقدّم دليلاً ملموساً على اتجاه التاريخ ونزوع الإنسان المتواصل في اتجاه الخير والحق. إن توحيد الأمة العربية يُمثّل يقظة الروح التي فعلت فعلها في العرب وفي أمم كثيرة في العالم. لقد كان ذلك خطوة مهمّة إلى الأمام في تاريخ البشرية.

ثم كان وضع التجزئة الذي نحن فيه، فماذا يُمثّل هذا الوضع غير أنه النقيض الروحي؟ إن تحليل دوافعه العميقة يصل بنا إلى رؤية المصالح الأجنبية والمصالح المحلّية، وكلها تعود لدينا إلى الشرّ وسيطرة الغرائز. إنها المصالح الأنانية المحلّية المتوافقة والمتعاونة مع المصالح الأنانية الأجنبية. لذلك لا ينطوي وضع التجزئة على أية فضيلة، بل على العكس فهو من دنيا المعسكر الآخر، معسكر الشرّ والتخلّف.

وكما هي الحال في كل حالة أخرى، لقد بدأ التناقض بالظهور وأخذ الانقسام إلى معسكرين طريقه: معسكر التوحيد ومعسكر الواقع

القائم. إن الصراع الذي يقوم الآن بين المعسكرين ليس إلاّ أحد الأمثلة الواقعية على عملية أزلية في التاريخ التي من خلالها استطاع الإنسان أن يتقدّم.

وكما مرّ ذكره، فإن اتجاه الخير قد استخدم العقل في مسعاه للتوضيح والتنوير فتكوّنت ثقافة الوحدة والتوحيد. واتجاه الشرّ قد عمل مثل ذلك فأوجد ثقافة التجزئة والمحافظة على الوضع الراهن. وسخّرت كل جهة ما لديها من إمكانيات مادية وقُدرات فنّية ومَلَكات عقلية لدعم موقفها والصراع مستمرٌ. والفرد العربي في هذا الخضم مُعرَّض لتأثير كلتا القوتين: قوة الخير المتمثّلة في الضمير، وقوة الشرّ المتمثّلة في الغرائز. ويتفاوت مدى تأثير أي من القوتين من فرد لآخر ومن وضع لآخر بصورة معقّدة متداخلة تتصارع فيها القوتان مخلّفة آثاراً متباينة وحالات لا حصر لها من مدى التأثير ونتائجه. فبعضهم قد استيقظ فيه الضمير مبكراً فكان في المقدمة، وبعضهم كان بحاجة إلى مزيد من الأدلّة لحصول اليقظة لديه، كما أن بعضهم تمكّنت منه الغرائز وسيطرت عليه تقريباً، في حين أن بعضهم الآخر كان تأثيرها عليه أقل.. وهكذا.

ولا يخفى أن عملية الصراع هذه تستغرق وقتاً وليس من اليسير التنبؤ بموعد انتهائها. كما أن خط سيرها متعرّج ففيها الكرّ والفرّ والصعود والهبوط. ومع كل ذلك، فالنتيجة النهائية لا يُمكن إلاّ أن تكون بتغلّب نزعة الخير وانتصار الحقيقة بتحقيق الوحدة. وبذلك تتحقّق خطوة مهمّة جديدة لصالح الأمة ولصالح الأمم الأخرى كذلك. فتحقيق الوحدة العربية في حقيقته عمل روحي وليس مادياً؛ وهو تطوّر

تحرّكه الحوافز الأساسية نفسها التي تحفز التاريخ الإنساني؛ وهو ليس إلاّ أحد مظاهر ذلك الصراع الأزلي الذي يمكّن الوجود كله، بما فيه الإنسان، من الصعود إلى مرتبة أعلى في سلّم الرقي. وهذا هو معنى القول إن الوحدة العربية هي في اتجاه التاريخ أما النقيض لها فهو في اتجاه معاكس. التاريخ يسير بفعل قوة كبرى مهيمنة تتمثّل في نظام محكم له غاية مثالية. فكيف يتسنى لوضع التجزئة الذي يحاول إعاقة مسيرة التاريخ أن ينتصر وأن يبقى؟ ذلك أمر مستحيل.

وقد يخطر في البال أننا حتى الآن كنا نبحث في نطاق الضمير ومنطق الروح وقلنا إن العقل ليس إلا مَلَكَة فنية. ولكن العقل ـ وكما سبق بيانه ـ يستطيع وهو يؤدّي مهمته الإيضاحية أن يصوغ الأفكار، ومن هنا كانت العلوم الاجتماعية والطبيعية. والعلوم تتضمّن القوانين والنظريات التي تبحث في شؤون الإنسان والطبيعة. والسؤال هو: هل بمقدور العلوم هذه أن تقدّم الأدلة على صواب هدف الوحدة؟ إن الأخلاق والمُثُل العليا تدلل على ضرورة الوحدة، فهل تستطيع العلوم أن تؤدّي المهمة نفسها؟

الجواب هو أننا عندما نبحث الوحدة بمقاييس العلوم ماذا نجد؟ الذي نجده هو استخدام الحسابات العقلية المجرّدة، أي حسابات المنافع والمضار. فلو استخدمنا هذه الأداة في التقويم، ما هي النتيجة التي نخرج بها؟ والسؤال يُمكن أن يوجَّه إلى صاحب السؤال من الأساس. هل تستطيع عملية تقويم المنافع والمضار أن تثبت أن التجزئة هي الأفضل؟ ما منافع التجزئة وما مضار الوحدة؟ إن حصيلة هذا النوع من البحث لا تدلّ على نتيجة إيجابية لصالح الواقع القائم، بل على

عكس ذلك. وأغلب الظن أن التجزئة لا تُبحث من قِبَلِ أنصارها على أساس المنافع والمضار بل على أساسٍ آخر هو الصعوبة والسهولة. وهنا لا بد من جلب الانتباه إلى أن البحث على هذا الأساس أمر مختلف، فهو لا يتعلّق بقيم المحاسن والمساوىء. إذن فالأمر لا يتعلّق بمقارنة الحسن بالسيىء أو المفيد بالمضرّ، بل يعود إلى موضوع ميزان القوى بين اتجاه التوحيد واتجاه الواقع القائم. وبذلك ينكشف ضعف الحجة وتهافت الأساس العقلي للواقع

إن كل عملية صراع حدثت في التاريخ قد اتسمت بهذه السمة وشهدت وضعاً مماثلاً. نسمع مؤيدي التجزئة كأنهم يقولون: صحيح أن الوحدة مفيدة وان التجزئة مضرّة، إلاّ أن وضع التجزئة أقوى من اتجاه الوحدة لذلك نحن مع الأقوى. إن هذا القول هو ما قاله ـ صراحةً أو ضمناً ـ مؤيدو الوضع القائم في حالات الصراع الكبرى في التاريخ التي انتهت كلها بانتصار اتجاه التقدم على اتجاه بقاء القديم على قدمه. إذن لا جديد في هذا الموقف، فهو القول الذي يقوله اليوم مؤيدو التجزئة كما قاله مؤيدو التخلّف عبر التاريخ. والنتيجة معروفة ولكن لكل حالة خصائصها، فالنهضات الكبرى في التاريخ لا تتطابق وإنْ كان دافعها هو نفسه.

يتضح من ذلك أن قوانين العقل في مجال الإيضاح والتنوير لا توفّر دليلاً لصالح التجزئة، إذ حتى في مقياس المنافع والمضار لا يتوفر للتجزئة المسوغ الذي يؤيد بقاءها. إن معسكر التجزئة يتحدث بلغة ميزان القوى، وميزان القوى كما سبق إيضاحه لا يصلح لمثل هذه المهمّة لأنه يفتقر إلى عامل الثبات. إن ميزان القوى متحرّك دوماً لصالح

معسكر الخير ولغير صالح معسكر الشرّ بفعل اليقظة الحتمية للضمير، تلك اليقظة التي لا توقفها قوة بل هي القوة المطلقة.

وإذا بدا للفرد أن ميزان القوى في الوقت الحاضر هو لصالح معسكر التجزئة فلذلك أسباب أوّلها أن الناظر قد يلتفت إلى القوى الظاهرة لا إلى القوى المستترة. فالواقع الراهن له قوى مادية ظاهرة وقدرة على إظهار تلك القوة، في حين أن قوى التوحيد ـ وهي في وضع مضاد للواقع الراهن ـ إنما تكون في الغالب مستترة غير ظاهرة للعيان.

والسبب الآخر هو الفرق بين النظر إلى ميزان القوى على أساس تاريخي والنظر إليه على أساس محدود بتصوّر الإنسان الفرد. فالإنسان الفرد له مقاييس عادية مشتقّة من حياته اليومية ينظر على أساسها إلى الأمور، ومداها في الغالب لا يتعدى مدى حياته الشخصية، وهو مدى قصير، في حين أن الأساس التاريخي ينظر إلى ميزان القوى على أساس كل التاريخ. وعندها يتضح أن الوضع القائم لميزان القوى الذي قد يمتد لعشرات السنين خلال حياة الفرد ليس هو نهاية الأمر إذا ما نظر إلى الأمور من منظار ما حدث في التاريخ. ومن هنا جاء القول المعروف «إن عشرات السنين ليست شيئاً في حياة الأمم». إن حياة الأمم ليست كحياة الأفراد.

ـ ١٧ ـ

ويجب ألا يغيب عن البال أن عملية التفاعل التاريخي، التي تعبّر من خلالها إرادة الخير عن نفسها وتقود بالتالي سير التقدّم، لا تتمّ إلاّ

من خلال الإنسان حيث يتفاعل العقل مع الضمير وتمتزج فيها جهود الفرد مع إمكانيات المحيط وذلك ما يعطيها الصفة الواقعية. والصفة المهمّة لهذا التفاعل هي التناقض والصراع الذي ينتهي بنتيجة تمثّل رتبة أرقى في سلّم التقدم، وبذلك تتحقّق درجة جديدة من درجات الوضوح والاقتراب من الحقيقة.

إن عملية التناقض والصراع تتضمن ما هو سلبي وما هو إيجابي كليهما، بمعنى أنها تجمع ما بين الهدم والبناء. إذ في الوقت الذي يكون هناك شيء جديد يُبنى يكون هناك شيء ينهدم ويزول. فالعقل هو الذي يخترع الصيغ من نُظُم وهياكل، والضمير هو الذي يوجّه العقل إلى ذلك. والتناقض والصراع لا يكونان إلا بين نقيضين متعارضين كلّ يحاول التغلّب على الآخر؛ واحد موجود هو الواقع وآخر في طريق التكوين هو الهدف. لذلك، فعملية ولادة الجديد لا تكون إلا بتلاشي ما هو موجود بدرجات متفاوتة. ولكون ذلك يتمّ من خلال الإنسان وواقعه، لذلك فالعملية لا تأخذ شكلاً مصطنعاً كما قد يتصوّر بعض الناس. وبعبارة أخرى، إن القول بحتمية انتصار اتجاه الخير لا يعني أن ذلك يتمّ بصورة مبسّطة تشبه ما يقوم به الإنسان في المختبر. فالإنسان الفرد ربما لا يستطيع أن يرى إلاّ جزءاً صغيراً من معالم هذه العملية بسبب محدودية حياته بالنسبة لامتداد التاريخ.

ولكن الأمر لا ينحصر في ذلك. فعملية الصراع بين القوى التي تتمّ من خلالها عملية تكوين التاريخ لا يمكن أن تؤثّر وأن تفعل فعلها إلاّ إذا انطوت على عملية البناء من خلال الهدم. ويعني ذلك أنها لا بد أن تتضمن الإخفاق والتراجع إلى جانب النجاح والتقدّم. وبذلك يكون

سير خط الصراع متعرّجاً وليس مستقيماً. إن الأفكار المتجسّدة في أعمالٍ تؤثّر في النفس وتستثير القوى الموجودة في الإنسان من خلال حالات الهبوط والارتفاع هذه. والمثال العملي هو الذي يُحرِّك الإنسان وليس مجرد اللفظ الذي يُطلقه اللسان. فالتضحية والعمل المضني والألم والمعاناة والتوتر.. إلخ، تضع أمام الإنسان الدليل العملي على عمق ما يدور حوله الصراع وعلى جدّية المعركة التي يخلقها التناقض. وبدون هذه الأدلّة العملية لا تُستثار كوامن النفس ولا ينفعل العقل ويقدح زناده. إن تنبّه الضمير يشتد عندما توضع على مسرح التاريخ الأمثلة العملية على وجود الصراع وجدّيته.

ومن ذلك يتبيّن أن حتمية انتصار الحقيقة يجب ألا تقودنا إلى امتلاك فهم خاطىء عن كيفية جريان التاريخ. فالحتمية هنا لا تعني أن الحوادث تجري بصورة مصطنعة. إن التاريخ يحدث من خلال الهدم والبناء، المتضمن كل احتمالات المعاناة والإخفاق والألم والتضحية للأسباب نفسها التي ذكرتُ. والفرد عندما ينظر إلى عملية الصراع على أساس مقاييس مشتقة من حياته هو فإنه يراها بشكل مختلف عما لو نظر إليها على أساس التاريخ. فعندما تحصل حالة خيبة ما ويحكم على ذلك من خلال مقاييس حياته يصل إلى استنتاج خاطىء، تماماً كما يخطىء الفرد عندما ينظر إلى الأرض التي يسير عليها ويراها مستوية فيظن أن الأرض مستوية في حين أنها كروية. إن السبب الذي يحجب عنه رؤية كروية الأرض هو أنه نظر إلى الأرض على أساس مقاييسه هو كفرد، أي ما يمتد إليه بصره هو، في حين أن ذلك المدى لا يُشكِّل إلاّ جزءاً بسيطاً من الحقيقة.

هكذا إذن يجب أن ننظر إلى عملية التناقض القائمة الآن في المجتمع العربي حيث يقوم صراع بين وضع التجزئة وهدف الوحدة، الوحدة في اتجاه التاريخ والتجزئة في اتجاه معاكس، ولكن كل ذلك بمنظار التاريخ وليس بمنظار الفرد.

-١٨-

وبناءً على وجهة النظر هذه فإن أموراً مهمّة في حياتنا تصبح أكثر وضوحاً.

إن القومية تعني من جملة ما تعنيه حب الأمة، أي أن يحب المواطن أمته. والحب يتصل بعاطفة الإنسان التي تنبع من الغريزة. إن حب المواطن لأمته بالشكل العاطفي ضروري لتحقيق الترابط الاجتماعي والانصهار في وحدة المجتمع، كما أنه باعث على العمل والحماسة والتضحية.

إن الانتماء إلى الأمة لا بد أن يكون عاطفياً متمثّلاً بالحب والتعلّق. وحب الأمة لنفسها ضروري ونافع للأسباب التي ذكرناها. إلاّ أن الغريزة التي تغذّي هذا الحب إذا ما بقيت ضمن حدود معيّنة تكون انعكاساً لاتجاه الخير كما هي الحالة لدى الفرد، ولكنها عندما تخرج عن تلك الحدود تتحوّل إلى عالم الشرّ وذلك عندما يتطرّف حب الأمة لذاتها إلى درجة عدم احترام الأمم الأخرى أو الاعتداء عليها. وهنا يجب أن يؤدّي الضمير المتفاعل مع العقل دوره في إبقاء الغريزة ضمن حدود الخير. إذن فالأمة التي تسيطر فيها الغريزة على الضمير تكون معرّضة للخروج عن دائرة المُثُل العليا والمبادىء الإنسانية، فتكون

القومية في هذه الحالة متعصبة معتدية فتجلب الضرر على الآخرين وبالتالي على نفسها.

أما القومية الإنسانية فهي القومية التي يؤدّي فيها الضمير المتفاعل مع العقل دور الكابح لتطرّف حب الذات النابع من الغريزة فيُبقي حب الأمة لنفسها ضمن الحدود النافعة التي ذكرناها. وهكذا تؤدي الغريزة دوراً إنسانياً في نهضة الأمة وتماسكها وفعالية أفرادها فتخدم التطور دون أن تخرج من دائرة الخير إلى دنيا الشر. وبذلك تكون القومية الإنسانية هي القومية التي تتوفّر فيها هذه الصفات، حيث تقوم الغريزة بدورها ويقوم الضمير المتحد مع العقل بدوره.

إذن القومية إنسانية وليست غريزة بلا حدود. كما أنها ليست ضميراً مجرَّداً أو عقلاً مجرَّداً. إنها العلاقة المحدَّدة بين الغريزة والعقل والضمير. وعليه، فالمجتمع العربي المتطوِّر لا يُمكن أن يكون خالياً من الروح القومية، بدون الحب (حب المواطن لأمته ووطنه) الذي يوفِّر العاطفة التي تستثير فيه روح المواطنة والعمل والإبداع والتقدّم وتخلق لديه الاستعداد للتضحية من أجل سلامة الأمة وأمن الوطن.

إن علاقة المواطن بالأمة ليست علاقة قانونية مجرَّدة قائمة على مبدأ توزيع الحقوق والواجبات. فأنا مواطن في هذا المجتمع طالما يضمن لي المجتمع حقوقاً معيّنة وأؤدي لقاء ذلك واجبات معيّنة تجاهه. كلا ليس ذلك هو الأساس الاجتماعي للمواطنة، بل الأساس هو أنني مواطن في هذا المجتمع لأنني أنتمي إلى الأمة. فأنا عضوٌ فيها وأُحبها وأنتمي إليها وأدافع عنها وأقدّم من أجلها التضحية وأعمل على تقدّمها. صحيح أن القانون يُحدِّد حقوقي وواجباتي ولكنني لا أنتمي إليها لأنها

فقط تمنحني هذه الحقوق. وفي الوقت نفسه يحثّني ضميري ويدلّني عقلي على أنني يجب أن أحترم الأمم الأخرى ولا أعتدي على أيٍ منها. إن عقلي بوحي من ضميري يدلّني على نمط من العلاقات الدولية يقوم على أساس الاحترام والتعاون والسلام مع الأمم الأخرى. عندما نجد خللاً في الاتجاه في العلاقات الدولية، فإنما يكون سببه غياب أثر الضمير حيث تعمل الغريزة بدون كابح. ولكن عندما يتوفّر اتجاه الخير ويحصل خللٌ فنّي في صياغة علاقات محدّدة مع الأمم الأخرى يكون السبب غياب دور العقل. الضمير دوره في تحديد الاتجاه أما العقل فدوره فنّي في صياغة النظام المعبّر عن الاتجاه.

وفي المجال الاجتماعي، تُلقي وجهة النظر هذه ضوءاً كاشفاً على قضية مهمّة تتعلق بالنظام الاقتصادي. ثمة في الإنسان حبٌّ للتملّك، والملكية الخاصّة جزءٌ من الطبيعة البشرية ويرجع ذلك إلى الغريزة. إن إيثار الملكية الخاصّة كان طوال التاريخ حافزاً للتقدّم في جميع مجالات النشاط الاقتصادي. فالتنمية والعمران واستثمار الموارد الطبيعية وكثير من النشاط الإنساني في مجالات الاختراع والإبداع العلمي والاكتشافات الجغرافية كان باعثها غريزة التملّك وإيثار الملكية الخاصّة.

إن الحافز الذاتي في النشاط الإقتصادي واضح جليّ على امتداد التاريخ. وقد توفّر مؤخراً دليل مهمّ عليه عندما أخفق النظام اللذي قام على إلغاء ذلك الدافع في دنيا المعسكر الاشتراكي. فالغريزة في هذا المجال تؤدّي دوراً في اتجاه الخير عندما تكون حافزاً للتقدّم والتنمية والرفاهية. ولكنها وبعد حدود معيّنة يُمكن أن تتحوّل إلى دنيا الشرّ عندما تكون باعثاً على استغلال وتوسيع الفوارق الطبقية بكل ما ينطوي

عليه ذلك ويتبعه من شرور تطرّف الحرّية الاقتصادية. إن نظام الحرية الاقتصادية يظل في اتجاه الخير لحد معيّن، وبعد ذلك الحد يتحوّل باتجاه الشرّ عندما تكون الغريزة مطلقة التصرّف. فالغريزة ـ كما قُلنا ـ عمياء لا تبصر، فهي تعمل وتتحرّك وبإمكانها في ذلك العمل وتلك الحركة أن تكون في خدمة الصالح العام إذا ما أُبقيت ضمن حدودها، كما بإمكانها أن تكون ضد الصالح العام إذا تُرِكت سائبة بدون ضوابط.

لذلك، ومن أجل تجنّب خروج الغريزة عن حدودها، ومن أجل حفظ نظام الحرية الاقتصادية في حدود الصالح العام، لا بد من تدخّل الضمير المتحد مع العقل. إن العقل الذي يُحرِّكه الضمير لا بد أن ينظر في الأمور يفحصها ويحلّلها ويحدّد مواضع الخلل ويقترح الوسائل لمعالجتها ويصوغ الحلول للمشاكل. إنه بذلك يقترح سُبُل تدخّل الإرادة العامة (الدولة) ويصوغ تفاصيل النظام الاقتصادي القائم على العدالة.. وهكذا تكون التنمية الاقتصادية مقرونة بالعدالة الاجتماعية.
إن العقل لا يقوم بذلك إلا بوحي من الضمير وبتحريكٍ من إرادة الخير في الإنسان. وهنا أيضاً يتضح أن العقل المتحد مع الضمير يُشكّل أداة تنظيم العلاقة مع الغريزة. والغريزة التي يُنظِّمها العقل المتفاعل مع الضمير ينتج عنها نظام اقتصادي يُحقِّق التطوّر والارتقاء كما يحقّق العدالة. فعندما تنطلق الغريزة في نشاطها ويكون دور الضمير غائباً لا يستطيع العقل أن يسد مسدّه، بل على العكس قد يوضع العقل في خدمة الغريزة فيقوم بالتنظير لها ومساعدتها فيما تقوم به. وعندما يقوم الضمير بدوره في توفير الاتجاه للخير ويحصل خلل فيكون ذلك راجعاً إلى أن العقل لم يقم بدوره الفنّي كما يجب، ألا وهو صياغة النظام الذي يحقّق

التنمية والعدالة في آن. إذن فغياب كل من الضمير والعقل ينتج عن خلل، إلا أن خلل الضمير جوهري وخلل العقل فنّي.

ـ ١٩ ـ

ولمزيد من الإيضاح أودّ تقديم ملاحظات في باب المقارنة بين وجهة النظر هذه وبين آراء أخرى ذات علاقة اقتراباً أو ابتعاداً. أولاً أودّ أن أتناول موضوعاً طالما تناوله البحث وكان موضع اختلاف في وجهات النظر.

إن المُثُل العليا تتباين من حيث الصياغة، إلاّ أن ذلك لا يُمكن أن يُستعمل مسوّغاً لنفي موضوع المُثُل العليا من أساسه. فهناك من يقول مثلاً إن ما أعتبره أنا مثلاً أعلى قد لا يعتبره كذلك الآخرون، وبالتالي فإن مسألة المُثُل العليا مسألة رأي. ومن ذلك يستنتج القائلون بهذا الرأي أن المُثُل العليا قضية نسبية وليست مطلقة، وهي بالتالي غير موجودة خارج تصوّراتنا. إن هذا الرأي، الذي يُلخِّص تقريباً الفلسفة الذرائعية التي نشأت في الولايات المتحدة، يصل في النهاية إلى استنتاج مفاده أن المثل الأعلى إنما هو رغبة شخصية وتصوّر ذاتي، لذلك فهو قابل للتباين من شخص لآخر. فأنا لي مُثُلي العليا وأنت لك مُثُلك العليا وللآخرين مُثُلهم العليا، والكلّ صحيح إذا ما حقّق ونجح. لذلك لا يوجد مقياس مطلق موضوعي خارج تصوّراتنا لقياس الخطأ والصواب. . هذه الفلسفة التي رشحت من وضع مجتمع يسوده شعور القوة ويهيمن فيه الاستغلال والتسلّط، مجتمع كان يفتّش عن تبرير نظري يمنحه الحرية في التصرّف ويطلق يده في التعامل مع الآخرين في الداخل ـ بين طبقة وطبقة، وفي الخارج ـ بين أمة وأمة. والقول بوجود

اتجاه مطلق للخير هو فوق إرادتنا ورغباتنا ووجود مُثُل عليا هي المقياس الموضوعي لما هو حق وما هو باطل، لا يُناسب مثل هذا الوضع ولا يُلبّي تلك الرغبات، لأنه يُقيِّد يد القوي ويمنعه من التصرّف بشؤون الضعيف بسبب وجود المقياس الموضوعي لما هو حق وما هو باطل. الذرائعية تؤدّي إلى النسبية. فالمُثُل العليا مسألة نسبية وليست مطلقة؛ نسبية بمعنى أنها نابعة من التصوّر الشخصي الذاتي للإنسان وليس من قوة مهيمنة كلّية في الكون. الحقيقة هي ما أتصورها أنا حقيقة والحق هو ما أعتقده أنا حقاً، لذلك فأنا مطلق اليد وحرّ التصرّف إزاء الآخرين. هذا ما تنتهي إليه الذرائعية وما تريده فلسفة النسبية في موضوع المُثُل العليا.

ولننظرْ ملياً في أحداث التاريخ لنرى كيف كانت الأمور؟ إن قضية الحرّية كانت في جوهرها قضية واحدة. فقد ناضل الإنسان من أجل حرّيته منذ أقدم العصور ولا يزال، وكان عندما يُسأل عن المسوّغ يجيب بالقول البسيط إنما الجوهري: الإنسان وُلد حرّاً والحرّية هي من حقوقه، لذلك يجب أن يتمتع بها طوال حياته.

إن مفهوم الحرّية إذا ما أُخذ من حيث الجوهر لم يكن قط محلاً للاجتهاد بل كانت الوحدة والثبات واضحين فيه. إن موضوع ما هو حق لم يكن يوماً موضع اختلاف أو خاضعاً لوجهات النظر. فالإنسان عندما يعمل له الحق بأن يتمتع بثمار عمله هو لا أن يستحوذ عليها الآخرون، لذلك كانت السرقة شرّاً ورذيلة في جميع حقبات التاريخ وإنْ اختلفت الصيغ العملية للسرقة. إن السرقة في مجتمع بدائي يكون موضوعها عادةً محدوداً بحدود المقتنيات البسيطة المتوافرة، إلا أنها في المجتمع

الصناعي المتطوّر تكون مواضيعها معقدة ومتعددة، وهكذا تتباين الأشكال المادّية التي تتجسّد بها القيمة.

حقاً، لقد اعتبر الإنسان الكذب والسرقة والاعتداء على الآخرين من الشرور، واعتبر الصدق والأمانة والسلام واحترام الآخرين من الفضائل، بغض النظر عن الزمان والمكان. إن القيم الجوهرية مُثُل عليا ثابتة مشتقّة من إرادة الخير الكلّية التي هي أساس النظام في الكون وغايته المُثلى. لذلك نجد أن بين الأديان الكبرى أموراً مشتركة وهي غالباً ما تدخل في مجال القيم والمُثُل العليا وإنْ هي اختلفت في موضوع تنظيم المجتمع.

المعروف أن الماركسية تبنت نظرية هيغل في الجدلية (الدايلكتيك) إلا أنها حوّلتها من صراع فكري إلى صراع مادي يقوم بين الطبقات، والذي يُسيِّر الصراع هو تغيير الأوضاع الاقتصادية من خلال تغيير وسائل الإنتاج. المُلاحظ أن الماركسية تقول بأن للتطور اتجاهاً هو التقدّم نحو الأفضل: من الصيد إلى الشيوعية. إذن فالتاريخ يسير في اتجاه التقدّم وله غاية سامية، ولكنها لا تبيّن السبب الذي يجعل التاريخ يسير على هذا النحو. أما نحن فنقول إن التطوّر لا يُمكن أن يسير في هذا الاتجاه إلاّ إذا توفر عامل مثالي في التطوّر، يختار الخير وليس الشرّ، الجيد وليس الرديء. إن هذا الجانب تغفله الماركسية تماماً وتقفز عنه. إن القوى المادية بإمكانها عن طريق الصراع والاصطدام أن تؤدّي إلى تغيير الأوضاع، ولكن من أجل تغيير الأوضاع إلى الأحسن والأفضل لا بد من وجود فكرة مثالية هي فكرة المثل الأعلى، وذلك عنصر غير مادي. إن الماركسية التي هاجمت المثالية لم تستطع التخلّص منها، فهي تُعطي التطوّر صفة مثالية بدون أن تورد سبباً لذلك

بل قفزت عن هذا الموضوع تماماً.

إن أهمّ ما أختلفُ فيه مع الماركسية هو أن الماركسية جبرية تنتهي بجعل التطوّر من صُنع قوى خارجة عن إرادة الإنسان، فالتطوّر بنظرها حتمي وليس للإنسان أية قدرة على تغييره أو مقاومته. إن تفكير الإنسان نفسه يتشكّل بفعل الظروف الاقتصادية التي يعيشها، فأفكاره لا تعود لذاته بل للظروف الاقتصادية المحيطة به، فكيفما تكون الظروف تكون أفكار الإنسان.. وبذلك تلغي الماركسية موضوع الضمير برمته وكل قدرة تفكيرية للعقل مؤثّرة في الظروف والتاريخ. الجبرية الماركسية كالجبرية الدينية تلغي دور العقل وموضوع الحرّية.

في تاريخ الفكر آراء متفائلة ترى العالم كله خيراً، وأخرى متشائمة تراه عكس ذلك. وهناك آراء تقول بوجود الخير والشرّ سويةً وإنهما في صراع. إنني أرى أن الشرّ موجود إلا أنه لا يعود إلى عامل جوهري في الوجود، أي انه لا ينتج عن قوة قائمة أو إرادة قائمة بذاتها، بل ينتج عن خروج الغريزة عن حدودها. فالغريزة بحد ذاتها لا تمثّل الشرّ، بل إنها إحدى الصور التي تتمثّل بها إرادة الخير إلا أنها عمياء يمكن أن تشتط وتخرج عن الحدود وتتحوّل من خدمة الخير إلى خدمة الشرّ. لذلك فما موجود في الحقيقة هو إرادة الخير المتمثّلة في الضمير وفي الغريزة عندما تكون ضمن الحدود.

أخلص من ذلك إلى أنه لا يوجد شرّ بحد ذاته بل يوجد خير بحد ذاته؛ الشرّ قابل للمعالجة والسيطرة عليه بفعل قوة الضمير المتحد مع العقل. وعلى ذلك، فإن وجهة النظر التي أعرضها هي، بهذا المعنى، وجهة نظر متفائلة.

مطبعة دار الكتب. ساحة رياض الصلح. بناية العازارية. ٦٤٥٠٣٩ (٠١). ٢٢٤٣٣٢ (٠٢)
١٠٠٠ /٩٧/ ١٢٣٩